

أبناء الرسول في كربلاء

قصّة الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه في روعة
شباتهم وجلال تضحياتهم وعظمتهم ولأنهم للحق

خالد محمد خالد



أبناء الرسول
فى كربلاء

خالد محمد خالد

أبناء الرسول فى كربلاء



شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

جمادى الآخر ١٤٢٥هـ - يوليو ٢٠٠٤م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الناشر

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

من الصعب أن نجد في تاريخ البشرية كله، يوما كذلك اليوم
الفريد والمجيد.. وأبطالا، كأولئك الأبطال الشاهقين والباهرين..!! إذ
لم يكن الأمر في ذلك اليوم، أمر شهداء برزوا لمناياهم في استبسال
وغبطة..

ولا أمر جيش، خرج لجيش مثله، فأبلى وأحسن البلاء..
إنما الأمر الذي شغل الدنيا في يوم كربلاء، هو أنه اليوم الذي
تجلت فيه قداسة الحق، وشرف التضحية على نحو متميز وفريد..!!
وصحيح أن تاريخ الإسلام مترع بالمشاهد الزاخرة بقداسة الحق
وشرف التضحية، أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيما تلا عصره
الرائد العظيم من عهود وعصور.. بيد أن يوم كربلاء، تبقى له سمته
المعجدة، وميزته المفردة.

فالقضية الجليلة التي دار من أجلها الصراع.. والقلعة الصامدة
الماجدة، التي وهبت حياتها لتلك القضية..

والطريقة التي دار بها القتال بين أربعة آلاف فارس من جيش ابن
زياد، واثنين وسبعين لا غير.. هم أنصار "الإمام الحسين"
والأحداث المروعة، التي سبقت ذلك اليوم..

والحصاد الأليم، والعظيم الذي خلفه، بعد أن مالت شمسهِ للغروب..

كل ذلك يجعل من يوم كربلاء يوما فريدا في تاريخ الآلام والبطولات.. في تاريخ التضحية والمجد.. في تاريخ المأساة والعظمة.. وفي تاريخ الحق الذي شهد في ذلك اليوم -ورغم هزيمة أبطاله- سيادة وانتصارا قرت بهما عيناه..!!

إن أعظم ما صنع "الحسين" وأهله وصحبه في ذلك اليوم هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته، ومثوبة نفسه فلم يعد النصر "مزية" له.. ولم تعد الهزيمة "إزراء" به..!!

لقد وقف اثنان وسبعون بطلا، وراء قائدهم العظيم "أبى عبد الله الحسين" ليس لهم في إحراز النصر على عدوهم أدنى أمل.. وليس أمامهم سوى القتل بأسلحة خصم فاجر، متوحش، مسعور.. وأمامهم فرص النجاة؛ إذا هم أرادوها لكنهم رفضوا النجاة مادامت ستكون غمطا لقداسة الحق، وثلما لشرف التضحية..!!

وهكذا راحوا يقاتلون حول قائدهم الممجد، معانقين المنايا، واحدا بعد واحد.. وهم يصيحون، بل يغنون:
الله، والجنة.. الله، والجنة..!!

من أجل ذلك، يرفض هذا الكتاب الوقوف عند اعتبار "كربلاء" مأساة وفاجعة، ومناسبة للبكاء والعيول..

ويمد بصره نحو مضمونها الصحيح، وجوهرها النضير، فيراها مهرجانا للحق وعيدا للتضحية، ليس لهما نظير..!!

إنه يوم لم يعرف المسلمون بعد، حقه عليم، ولا واجبهم تلقاءه،

وإن الأقدار لم تدع رءوس أبناء الرسول ﷺ تحمل على أسنة رماح قاتليهم؛ إلا لتكون "مشاعل" على طريق الأبد.. للمسلمين خاصة، وللبشرية الراشدة كافة، يتعلمون في ضوئها الباهر: أن الحق وحده هو المقدس.. وأن التضحية وحدها هي الشرف.. وأن الولاء المطلق للحق والتضحية العادلة في سبيله، هما وحدهما اللذان يجعلان للإنسان والحياة قيمة ومعنى...!!!

فهل يأذن حفيد الرسول ﷺ وأبو الأبطال، أن أقدم عنه وعن رفاقه الأبرار هذه الصفحات...!!

إني لأجاوز قدرى، إذا زعمت أو توهمت أنني قادر على إيفاء تضحياتهم وعظمتهم حقها..

لقد وجدت -لا غير- عبير تلك التضحيات وتلك العظيمة؛ فرحت أنادى الناس كي يستمتعوا معى بهذا العبير...!!

وليشهدوا -كما لم يشهدوا من قبل- شرف التضحية، وعزمها القدير...!!

ويا أبا عبد الله

سلام على البيت الذي أنجبك.. وعلى الدين الذي رباك..

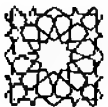
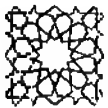
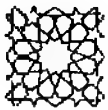
وسلام على رفاقك الأبطال الممجدين، والشهداء الظافرين.

خالد محمد خالد

الفصل الأول



للتضحية خلقوا ..



كانت أحب أهلها إلى أبيها، وأقربهم من قلبه الودود وكان
يشم فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية.
ذكريات السنوات الجليلة التي قضاها في صحبة أمها "خديجة"..
كما كان يتהלل غبطة ورضا، وهو يرى فيها أم ذريته المباركة
وسبطه العظيم..
إنها "فاطمة"..
بورك الاسم، وبورك صاحبته!!

وقد ذهبت يوما إلى أبيها الرسول ﷺ تسأله أن يدبر لها خادما
يعينها على عمل البيت الذي أمجل يديها، وأضنى عافيتها، ومسها منه
اللغوب.

وكان زوجها العظيم "علي بن أبي طالب" رضى الله عنه هو الذي
نصحها بهذا حين علم بمقدم بعض السبي إلى المدينة، وحين رآها
تكاد تسقط إغواء تحت وطأة العمل الدائب في خدمة البيت والأولاد.
وفي دار النبوة - وما كانت دار النبوة تلك سوى حجرة متواضعة
في ناحية من المسجد - استقبلها الأب والرسول صلى الله عليه وسلم!
- مرحبا، يا فاطمة..

وجلست "فاطمة" تتحدث مع أبيها، وبين الحين والحين تحاول الاستنجاد بشجاعته كي تلقى بين يديه الرغبة التي حفزتها إلى المعجىء.

لكن الحياء يغلب فيها الشجاعة؛ فتكظم الرغبة ولا تبوح..
ثم تستمر في حديث آخر أشبه ما يكون بالنجوى مع أكرم والد،
وأكرم رسول ﷺ!!

وأخيرا تستأذن في العودة إلى دارها، فيأذن لها أبوها الرسول
صلى الله عليه وسلم، ويودعها بنظرات مشفقة، وحانية..

ويسألها الزوج وقد عادت إليه:

- ماذا قال لك رسول الله ﷺ؟

وتجيبه "فاطمة":

- لقد استحيت أن أسأله!!

لكن "عليا" يعلم ما تنوء به من أعباء، فيصحبها من فوره إلى
الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام، حيث ينهى إليه رغبتها
وحاجتها.

ويرنو بصر "النبي" ﷺ إلى بعيد.. ويلتمع وجهه المضىء تحت
غلالة شفاقة من الشجن، والأسى، والحنان..

إنه ليعرف - مثلما يعرفان - ما تعانيه ابنته الحبيبة من مشقة
وشظف، وهي التي ولدت في أحضان نعيم جزل كانت تذخر به دار أمها
"خديجة" ذات المجد الوارف والثراء المفيض!!

لكنها اليوم ابنة "رسول" جاء الحياة ليعطى، لا ليأخذ..

رسول قرر أن يكون حظه وحظ أهله من الدنيا كزاد الراكب، بل

دون زاد الراكب بكثير..!!

وإن "فاطمة الزهراء" رضى الله عنها لتعلم هذا المنهج وتلتزمه.

ولقد رضيت - قرية العين - أن يكون كل جهازها الذى زفت به ليلة عرسها أعواداً من جريد صنع منها سرير واطى، ووسادة حشوها ليف.. وسقايين للماء.. ورحا عين للطحن.. وقارورتى طيب.. ومنخلا.. ومنشفة.. وقدحا..!

وهي إذ تجيء أبيها اليوم على استحياء، فى صحبة زوجها الفقير من عرض الدنيا ورغد العيش، فإنها لا تطلب ما ينأى بها عن منهج الرسول ﷺ فى الزهد وفى الورع.. إنها لا تريد أكثر من خادم يحمل عنها بعض العبء الذى يثقل كاهلها..!

ولكن، لا فمادامت الأقدار قد أسعدتها وشرفتها بأن تكون "بنت الرسول ﷺ" فإنها فى نفس الوقت، ولنفس السبب، تدعوها لأن تتحمل من التضحية أقصى ما يستطيع الناس.

ويحتمل معها ذلك القدر وأكثر، زوجها وبنوها..!!

وإن مشقة البيت، وشظف العيش لأهون من تلك التضحيات التى سيقدر لآل هذا البيت أن يحملوها..!!

من أجل هذا، لم يجد الرسول ﷺ فى وسعه أن يجيب "فاطمة وعليا" إلى رغبتهما المتواضعة والمشروعة.

ومن ثم غطى وجه ابنته الحبيبة بنظراته الآسية والحانية، وقال يخاطبها:

"لا يا فاطمة.. لا أعطيك، وأدع فقراء المسلمين..!!".

ثم اقترب منهما، وطوقهما بذراعيه، وقال لهما، وعلى فمه ابتسامة

كضوء الفجر:

"ألا أدلكما على خير من خادم..؟"

إذا أويثما إلى مضجعكما؛ فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين.. واحمداه

ثلاثاً وثلاثين.. وكبراه أربعاً وثلاثين.. فذلك خير لكما من خادم"!!..

إذا نحن جاوزنا شكل هذه الواقعة إلى جوهرها، أدركنا المغزى

العظيم لها، وأدركنا كذلك، الدور المجيد والوحيد الذي كان على

أهل بيت النبى ﷺ أن يقوموا به غير منتظرين أجراً، ولا متعللين

براحة..!!!

وإذا كانت هذه الواقعة ترينا كيف كان الرسول ﷺ يزكى هذا

المبدأ في أفئدة آل بيته فإنها لم تكن الواقعة الوحيدة في هذا

المجال.. بل هى واحدة من وقائع كُثُرٍ كان الرسول عليه الصلاة

والسلام يصوغ منها أسلوبه فى إعداد أهل بيته لدورهم العظيم، هذا

الدور الذي ستكون التضحية لُحمته وسُداه..

ففي يوم آخر.. وكان يوم فتح مكة ذهب "على" رضى الله عنه إلى

رسول الله ﷺ يسأله أن يمنحه حجابة البيت الحرام.

وكانت الحجابة وظيفة تتوارثها من قديم إحدى عائلات قريش.

ولم يكن ابن عم الرسول ﷺ حين تمنّاها، يطمح إلى مغنم أو عرض

من أعراض الدنيا الزائلة.

إنما كان يرجو أن يذهب بشرف حمل مفاتيح بيت الله الحرام.

هنالك تقدم من الرسول ﷺ الذي كان جالسا وسط أصحابه، تقدم

ومفاتيح المسجد والكعبة في يمينه وقال:

"يا رسول الله !! اجعل لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك".
وابتسم الرسول ﷺ ابتسامته العذبة المعهودة في مثل هذه
المواقف، وبسط يمينه المباركة نحو ابن عمه، آخذاً منه المفاتيح، ثم
نادى، وبصره يجول بين الناس:
"أين عثمان ابن طلحة؟؟"
وكان "عثمان بن طلحة" هو القائم يومها بوظيفة الحجابة هذه..
ونفض "ابن طلحة" قائماً، يلبي نداء رسول الله ﷺ وألقى الرسول
بالمفاتيح إليه، وقال:
"هاك مفتاحك يا عثمان.. اليوم يوم بر ووفاء..
ثم التفت إلى ابن عمه "على" وقال:
"إنما أعطيكُم ما تُرزأون، لا ما تُرزأون!!"
ياله من درس.. ويالها من نبوءة!!
أجل.. هذا دور آل محمد ﷺ في الحياة.. التضحية بكل ما تتطلبه
من شطف، وتبتل، واستغناء..
لا شيء دون التضحية، ولا شيء سواها..
أما الدنيا بكل زينتها وزخرفها وإغرائها؛ فهي أهون على الله من
أن يجعلها لهم مثوبة وأجراً!!
إن عليهم في هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد. عليهم أن يقضوا
أعمارهم كلها فوق "منصة الأستاذية" ليعلموا الناس فناً واحداً.. هو
فن التضحية والفداء، أروع وأصدق ما تكون التضحية، ويكون
الفداء..!!!

على هذا النسق الرفيع الباهر رى الرسول الكريم ﷺ "علياً وفاطمة" الأبوين الذين سيحيى من أصلا بهما، الحسن والحسين، وزينب، وبقيّة الأبناء والحفدة المباركين، الذين سنطالع على صفحات هذا الكتاب جلال ما بذلوا من تضحية.. وروعة ما صنعوا من بطولة..!! لقد رباهما كما رأينا على التحمل والتضحية.. وصحيح أنه رى جميع أصحابه على ذلك.. بيد أنه كان يطالب ذويه وأهل بيته بأن يبلغوا في هذا المجال أرفع مستويات التفوق والنبوغ. فالقدوة التي يجب على "فاطمة" أن تعطيها الآخرين بوصفها بنت رسول الله ﷺ ..

والقدوة التي يجب على "علي" أن يمنحها الآخرين بوصفه ابن عم الرسول ﷺ ، وتلميذه الأول، وزوج ابنته، ووالد أحفاده.. هذه القدوة المنتظرة منهما تختلف في نوعها وفي درجتها.. وتتفوق في نوعها، وفي درجتها.. ولئن كانت القدوة في عرف البشر "تجسيدا" للمثل العليا التي أبدعها الإنسان واكتشفها؛ فإنها كما علم الرسول ﷺ آل بيته وأصحابه "تجسيد" للربانية التي يريدّها الله..!!

وها هو ذا القراءان العظيم يهتف فيهم:
﴿كونوا ربايين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾.
فالربانية وحدها، هي التي تضيفي على العظمة الإنسانية رواء الصدق، والإخلاص، والنسك..

وهي التي تجعل من التضحيات رشدا ورضوانا..
ولقد كانت القدوة التي تركها "علي وفاطمة" والتي ستركها

"بنوهما" من بعدهما رائعة الاتساق مع هذه الغاية الفريدة، وذلك المستوى البعيد.

لقد كرسوا حياتهم للحق، أعظم ما يكون التكريس.. وضحووا في سبيله، أصدق ما تكون التضحية..

وإذا كان أكثر ما يجبن الناس عن التضحية، هو حب المال وحب الحياة.. فإن آل بيت الرسول ﷺ.. هؤلاء البررة الأطهار، قد عرفوا كيف يستهينون بالمال، ويستهينون بالحياة..!!

لقد رأينا، كيف كان "على وفاطمة" وأبناؤهما "يعيشون في خصاصة وشظف..

ألا فلنعلم أن هذه الخصاصة لم تكن عليهم ضربة لازب.. بل كانت من صنع أيديهم واختيارهم..

فنصيب "على" من الفء ومن الغنائم كان عظيما.. لكنه ما كان يبقى عليه، ولا يدخر منه.

إنما كان يأخذ منه مثل حسو الطائر.. ثم يهب بقيته في سماح وغبطة مسكينا، ويتيما، وأسيرا...!!

ولطالما كان يعتمد إلى الطعام المقل الذي يحتاجه لغذائهما طفلاه "الحسن والحسين" فيتصدق به على شيخ هرم، أو أرملة، أو يتيم..

وستكون هذه طريقه أولاده وشيمنتهم حين يكبرون.. فبعد قليل، سنرى "الحسن" وقد كثر راتبه وعطاؤه، أيام "معاوية" يقاسم الله أمواله..!! وكذلك سنرى "الحسين" .. سنراهما ينفقان عطاءهما في سبيل الخير، في سخاوة نفس نادرة المثال.

فإذا دُعُوا إلى التضحية بالحياة بعد التضحية بالمال، جادوا بأنفسهم، وباعوها صفقة رابحة وغالية ومتواضعة لله رب العالمين..!!
إنهم للتضحية خلقوا.. وللفداء عاشوا..

ولقد يخدعنا الفهم الزائغ لموقفين وقهما "على وفاطمة" فنرى فيهما جنوحا عن المبدأ العظيم الذي قامت عليه حياتهما.
هذان الموققان هما:

- موقف "السيدة فاطمة" من حقها في ميراث النبي ﷺ.

- وموقف "الإمام على" من بيعة الصديق أبي بكر.

إن النظرة السريعة المتعجلة لهذين الموقفين، توقع أصحابهما في وهم كبير، فيحسبونها عرضا من أعراض التطلع إلى الدنيا والحفاوة بها.

فأما عن الموقف الأول، فلم يكن لدى النبي ﷺ ما يورث .
لقد كان يمضى الشهر والشهران والثلاثة، ما يوقد في بيته نار تطهو طعاما..!!

ولقد لقي ربه، ودرعه مرهونة في حفنة شعير..!!
كل ما في الأمر، أن المسلمين في بعض غزواتهم أصابوا أرضا أمر رسول الله ﷺ أن تبقى في أيدي أصحابها. على أن ينال كل ذي حق فيها نصيبه من ريعها.

وأفاء الله على رسوله من تلك الأرض - فتي خيبر، وفدك - قطعة صغيرة. كان يُحمل ريعها إلى الرسول ﷺ فيستعين به على معيشة بيته وأهله، وأبناء السبيل.

ولما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، حول خليفته الصديق ذلك الربيع إلى بيت مال المسلمين.

وطالبت به السيدة فاطمة بوصفها وارثة أبيها، وغاضبت الخليفة من أجل صنيعه ذاك..

بيد أنها لم تكذ تعلم من أبي بكر، ومن غير أبي بكر من الأصحاب أن رسول الله ﷺ كان قد أعلن في حياته أن الأنبياء لا يورثون، حتى فاءت إلى حكم الشرع وأذعنت لقرار الرسول ﷺ، وتقبلت في رضا وتسليم حرمانها من ذلك الربيع الذي كانت في أشد الحاجة إليه. وهكذا أضافت إلى تضحياتها تضحية جديدة، وفاء منها وولاء للحق الذي قامت عليه حياتها..!!

وأما موقف "الإمام علي" من بيعة "الصديق أبي بكر" رضی الله عنهما، فما كان امتناعه عن البيعة أول أمرها تحدياً منه للمبادئ التي قامت عليها حياته الورعة، ولا نكوصاً عن التضحية من أجلها. بل كان في التحليل النهائي له، صورة صادقة لاستقامة النهج في ضمير "الإمام" وسلوكه..!!

لقد كان على اقتناع وطيد بأن خير الإسلام في أن يظل لواؤه بيد واحد من بيت النبوة، لا سيما في الفترة التالية لوفاة الرسول ﷺ حيث يخشى أن تتحرك النزعات القبلية في أحشاء المجتمع من جديد، متخذه من منصب الخلافة مجال تنافسها - الأمر الذي حدث فعلاً يوم السقيفة، إذ رأى بعض زعماء الأنصار أنهم أولى بالخلافة.. ورأى المهاجرون أنهم أحق بها وأجدر.. وكاد الخلاف يتفاقم لولا أن بسط

الله يده فوق عباده، وتحرك الضمير الديني الرشيد الذي غرسه الرسول ﷺ في أفئدة أصحابه؛ فذاب الخلاف فور نشوئه في حرارة الإيمان وصدق اليقين...!!

ولم يكن "على" في اقتناعه بأولوية بيت النبوة في الخلافة يبتغي لآل البيت امتياز خاصاً.

بل كان يرى ذلك امتداداً لواجبهم نحو الدين الذي أكرمهم الله به.

من أجل ذلك، نراه يجعل هذه الأولوية مشروطة بأن يكون في آل البيت من يؤهله صلاحه وورعه واقتداره لحمل تبعات المنصب الجليل.

ولقد صور اقتناعه هذا في وضوح كامل من خلال حوار مع الراشدين "أبي بكر وعمر" فقال:

"إنكم تدفعون آل محمد ﷺ عن مقامه ومقامهم في الناس، وتُنكرون عليهم حقهم..

أما والله، لنحن أحق بالأمر؛ مادام فينا القارئ لكتاب الله.. الفقيه في دين الله..

العالم بسنن رسول الله ﷺ.. المضطلع بأمر الرعية.. القاسم بينهم بالسوية..

وفي كلماته للصدِّيق حين وقف فيما بعد يُبايعه.
"يا أبا بكر..

إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكاراً لفضلك، ولا نفاساً عليك لخير

سأقه الله إليك.. إنما كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً أخذتموه" (١)

على أنه - كرم الله وجهه - سرعان ما انضم لإجماع الصحابة وبإيع
"الصديق" بيعة صدق ويقين.
وسرعان ما أثبت "الصديق" ومن بعده "الفاروق" أنهما خير خلف،
لأكرم سلف..

ووقف "على" مع كلا الخليفين يُبشّهما الرأي السديد، والنصح
الأمين "مما جعل أمير المؤمنين "عمر" يُشيد بسداد رأيه فيقول!
"لولا على، لهلك عمر"!!

هو إذن لم يكن ينشد الخلافة لدنيا يصيبها، ولو أرادها لذلك
لطالتها في يسرٍ يداؤه.. فلطالما حثّه أبو سفيان يومئذ، بل حرّضه إثر
مبايعة الناس أبا بكر على أن يتشبت بحقه في الخلافة، قائلاً له: "إن
شئت لأملأنها عليهم خيلاً ورجلاً، ولأسدنها عليهم من أقطارها" ..

فما كان جواب الإمام العظيم إلا أن قال له:

"يا أبا حنظلة!! إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا، ولا من شيمنا..
ولقد سدّدت دونها باباً، وطويت عنها كشْحاً"!!

ولقد جاءته الخلافة فيما بعد، فماذا كانت له.. وماذا كان لها؟؟..
أما هي، فكانت له عبئاً فادحاً، ورزماً رهيباً..

وأما هو؛ فكان لها المؤمن الذي لا يصرفه عن مسؤوليات إيمانه
شيء، والفدائي الذي لا تصرفه عن حب التضحية رغبة.. ولا تُجفله
رهبة..!! لقد كان قادراً - لو أراد - أن يطوى يمينه مائة حاكم من أمثال
معاوية.. وأن يطوى يمينه مائة شام، لا شاماً واحدة..!!

(١) راجع كتابنا "خلفاء الرسول".

أجل، بقليل من الدهاء، وقليل من المسايرة، كان قادراً على دَحْض التمرد كله.

لكن صرامته في احترام مبادئه وتطبيقها جعلته يؤثر المركب الصعب دوماً.

كان مؤمناً بأن الحق يجب أن يمضى في طريقه دون مُراوغة، أو مُسايرة، أو دهاء.

وحين أشاروا عليه أن يستبقى معاوية بعض الوقت واليا على الشام ريثما تقرر وتهداُ الفتنة، صاح في مشيريه قائلاً:

"أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور..؟ لا والله، لن يرانى الله متخذاً المُضِلِّين عَصُداً"!!..

هذا، هو الرجل الذى ربَّى "الحسين، والحسن" اللذين خاضا معه، وخاضا من بعده معارك الحق، فى سبيل أن يبقى الدين ديناً..

هذا هو الأب الذى أنجب أبطال كربلاء، الذين سنى الآن من بطولتهم عجباً..

وهذا هو بيت آل النبى ﷺ .. بيت القرايين والشهداء!!

لقد نزل الوحي يوماً بهذه الآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ومن فوره، دعا الرسول ﷺ إليه "علياً وفاطمة، والحسن، والحسين".

حيث دَثَّرهم بردائه، وضمَّهم بحنانه، وراح يقول فى حبور عظيم:

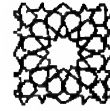
"هؤلاء أهل بيتى" ..

أفكانت الدنيا بكل إغرائها وبَذَخِها وغرورها، هى الرِّجْس الذى

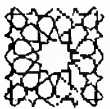
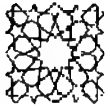
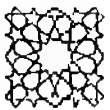
أذهب الله عن آل هذا البيت الكريم، فحال بينهم وبينها يبحارٍ من
دمائهم الزكية، وجبال من تضحياتهم الشاهقة الفتيّة..؟؟!



الفصل الثاني



النسوة لا الملك ..



.. والآن نقرب من جوهر القضية التي نذر "الإمام علي" لها حياته حتى قضى في سبيلها شهيداً .
والتي وهبها الحياة كذلك، أبنائه من بعده، حتى قضوا في سبيلها شهداء، لا سيما ذلك البطل الممجد الشهيد "أبو عبد الله الحسين بن علي" ..

لقد كشف تمرد معاوية، ورفضه مبايعة "الإمام علي" عن جوهر النضال الذي تحتم على الإمام أن ينهض بأعبائه.
وكان السؤال الذي يفرض نفسه يومئذ على المجتمع الإسلامي كله، هو ذا :

- لمن يجب أن تكون الغلبة ويكون البقاء...؟
للنبوة بكل هديها، وورعها، وجلالها الذي سواه في أحسن تقويم
وَحَيُّ اللَّهِ وَمَنْهَجُ رَسُولِهِ ﷺ ..

أم للملك بكل مبادخه ومباذله وتسلطه الذي باتت ترهص به على نطاق واسع أطماع الأمويين...؟؟
لقد كان أخشى ما يخشاه "الإمام" أن تقوم في الإسلام - دولة
الطُّلُقاء...!!

والطُّلقاء، هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة راغبين أو راهبين وبعض هؤلاء، حَسُنَ إسلامه وصفاً يقينه..

وبعضهم بقى تحت جوانحه إلى الجاهلية حنين.. وكانت الدولة المسلمة يومذاك، وبعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربّاني.. بحاجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحي وعصر النبوة.. ولم يكن "الإمام على" يومئذ الرجل الأفضل والأمثل فحسب، بل كان الرجل الأوحى الذى تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأُمته. وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجاً أكيداً على عصر النبوة بكل ما يمثله من هدى وعدالة ونور.

ولقد كانت بصيرة الإمام من النفاذ والصدق بحيث أبصرت أبعاد المصير إذا استقرّ السلطان فى أيدي الأمويين فلقد يهون الأمر، لو بدأ النكوص بمعاوية، وانتهى به.. غير أن "الإمام" كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ، فلن يؤذن بانتهاء..

وكان يرى أن الأمويين إذا أفلحوا فى تثبيت ملكهم المنشود، فسيتحول التراث الجليل الذى تركه الرسول ﷺ إلى ملك عضوضٍ ودنيا جامحة..

ومن ثم صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافة. وهذه كلمات أبى سفيان التى يجترّ بها نوايا أسرته وقومه، لا تدع مجالاً للشك فى أطماعهم وما يبتغون..

فهو يوصى أهله وذويه قائلاً: "لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفْلِت، وتلقّفوه كالكرة.. فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنة ولا نار!!.."

وهو يصرّ بقبر "حمزة" عم الرسول ﷺ فيستعيد ذكرى الأيام الماضية ويقول: يا أبا عمارة إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بنى أمية!!

وهو حتى من قديم، لم يكن يرى في الإسلام إلا مُلْكًا.. فيوم فتح مكة، وقد صحبه العباس عم النبي ﷺ إلى الرسول ليُسلم، وينجو بحياته، نظر إلى الكتائب الملّجة العارمة تحمل رايات الإسلام، فإذا به ينظر إلى "العباس" ويقول: "لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا.."

فيجيبه "العباس" رضى الله عنه: "يا أبا سفيان.. إنها النبوة، لا الملك.."

أجل.. هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بنى هاشم وتفكير بنى أمية.. فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته. نبوة، وهدى، نورا.. وبنو أمية يرونه من خلال أمانئهم وأطماعهم مُلْكًا، وتسُلْطًا، وسيادة!!

وإن "الإمام عليًا" لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذي اتخذته معاوية حين رفض بيعة الإمام، ولم يُخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشري ويتفاقم.

وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطير واجب المؤمنين.. فمَنْ أُولى المؤمنين بهذا..؟

إنهم آل بيت النبي ﷺ.. أهل التقوى، وأهل التضحية!! وهكذا شرع موكب التضحيات في مسيرة عالية، كلها قمم ومرتفعات.. مُستهلاً بأشرف تلكم القمم وأعلاها.. حياة الإمام الرشيد الشهيد "علي بن أبي طالب" رضى الله عنه وأرضاه..

ثم بحياة الشهيد الممجد والعظيم "أبي عبد الله الحسين بن علي"
ومعه عشرات من إخوانه، وأهل بيته وصحبه، في يوم يجعل الولدان
شيباً..!!

* * *

وهكذا، لم تكن "كربلاء" ملحمة ذات فصل واحد، بدأ وانتهى
يوم العاشر من المحرم..

بل كانت ذات فصول كثيرة بدأت قبل كربلاء بسنوات طوال..
واستمرت بعد كربلاء دهرًا طويلاً..!!

أجل.. لقد بدأت ملحمة كربلاء ومأساتها، يوم تمت خدعة
التحكيم، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنة في صفوف أتباع الإمام، ثم
حين خلا الجو لراية الأمويين داخل الشام، وخارج الشام..!!
ولكأنما كان "الإمام علي" يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك
المصير..!!

فذاث يوم أثناء مسيره مع جيشه إلى "صفين" بلغ به السير هذه
الرقعة من الأرض، فتمهل في سيره ثم وقف يتملى مشهد الفضاء
الرهب، وسالت عبراته من مآقيه، واقترب منه أصحابه صامتين
واجمين، لا يدرون ماذا أسال من مقلتي الأسد الدموع..!!

ثم سألهم ويمناه ممتدة صوب تلك الأرض التي تعلقت بها عيناه:
- ما اسم هذا المكان؟

قالوا: كربلاء.

قال: "هنا محط رحالهم ومهراق دمائهم"..!!

واستأنف سيره مع المقادير..

تُرى مَنْ كان يعنى.. وَمَنْ كان يشعئ..؟؟ أكان يعنى قُرّة عينه
"الحسين" وَمَنْ معه من إخوة له وأبناء..؟؟

أكان يعنى أولئك الأبطال الذين ستشهد هذه الأرض ذاتها
استشهادهم الرهيب والمهيب بعد عشرين عاماً لا غير من هذه النبوة
الصادقة..؟
ربما..

وربما لم يكن إلهامه ولم تكن بصيرته يومئذ معلّقين بواحد بذاته
من أهل بيته المباركين.
فهو على أية حال يدرك أن المعركة التي بدأها من أجل الحق لن
تنتهى..

ويدرك أنه لن يصبر أحدٌ من بعده على لأوائها وضراوتها مثلما
سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابراً عن كابر..!
وحين يحتدم فى البصائر النقية ولأؤها لحق مقدس، أو لمبدأ
جليل، فإنّ هذا الاحتدام يتلقى فى لحظة إشراق روحى مدداً من الرؤية
غير منظور، يكشف الغيب ويجذب إلى دائرة الاستشراف أحداث
الزمن البعيد..!!

ولعلّ شيئاً كهذا، حدث ذلك اليوم، فرأى الإمام النقيّ النقيّ بلاء
أبنائه وحفدته، رأى بلاءهم العظيم فى سبيل القضية التى حمل
لواءها، ورأى "محطّ رحالهم، ومُهراق دمائهم"..
* * *

القضية إذن، كانت كما قلنا، قضية "النبوة" لا "الملك".
النبوة بكل تألقاتها الورعة وموازينها العادلة.. لا الملك الذى

يريد نفر من الأمويين أن يردّوا به وثنية الجاهلية في أثواب تنكّرية..!!
والذين يدرسون معارك "الجمل، وصفين، وكربلاء" خارج هذه
الدائرة، لا يأمنون عثار تفكيرهم، وذئغ أحكامهم.
ولقد رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن "كربلاء" يُحمّلون "الحسين"
مسئولية مصيره، ومصير الذين خرجوا معه..!!

و "الحسين" رضى الله تعالى عنه، يتحمل في شجاعة وغبطة
مسئولية ذلك المصير، ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده هؤلاء..
فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه، باعتبار هذه
الدعوة فرصة رآها سانحةً لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت
الإمام..

وهم يلومونه، أو يكادون؛ لأنه لم يصغ لنصح الناصحين من
عشيرته الأقربين؛ كى يبقى مكانه فى البلد الحرام "مكة" نافضاً يديه من
مشاكل الموقف الكالح الذى نتج عن استخلاف يزيد..
فهل كان ذلك كذلك..؟؟
أبدًا..

وإن الأمر لمختلف جدًا..
فالقضية فى ضمير "الحسين" لم تكن قضية فرصة سنحت.. ولا هى
قضية حق شخصي فى الخلافة يبتغى استرداده.. ولا هى من القضايا
التي يكون للإنسان الرشيد حق التخلي عنها..
القضية فى ضمير التقى الشجاع، كانت قضية دين.. ويستوى عنده
تخليه عن هذه القضية، وتخليه عن هذا الدين..
صحيح أن "الشكل الخارجى" للقضية تمثل يومها فى استخلاف

يزيد.. لكن "جوهرها" الصحيح كان واضحاً أمام وعى "الحسين" ورُشدُه ونور بصيرته، تماماً كما كان واضحاً من قبل أمام وعى أبيه الإمام، وأمام رُشدُه وبصيرته..!!

واستخلافُ يزيد على هَوَانِه، لا ينفى عن القضية موضوعيتها العميقة، ولا يقلل من تبعة النهوض بها، بل هو يزيد من إلحاح هذه التبعات.

ف: "يزيد" هذا، لا يملك ذرة من الصلاحية التي تؤهّله لأن يجلس من الأمة المسلمة حيث كان من قبل "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي"...

لقد كانت خلافة واحد من طرازه أدهى كارثة تنزل بالدولة وبالأمة. لا سيما، وهو يستخلف في عصر لا تفصله عن عصر النبوة والوحي سوى سنوات معدودات.. وفي جيل لا يزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله ﷺ أمثال "عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، والحسن، والحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وأبي الدرداء، وقيس بن سعد بن عبادة"...

ولئن كان هناك من خيار الصحابة والمسلمين من سَكَن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه، فإنهم لم يفعلوا عن رضا واقتناع، بل عن رغبة في تجنب المسلمين مزيداً من الحروب والآلام والدماء - الأمر الذي لم يتردّد "الحسن" نفسه عن النهوض به - من قبل - حين تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية، على النحو الذي سنراه عما قريب..

ولو أن معاوية وقى بالعهد الذي أبرمه مع "الحسين" أمام المسلمين كافة، فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأمة؛

لتغير موقف "الحسن" ولتغير بالتالي مجرى الأحداث.

إننا الآن نستطيع أن نبصر عدالة القضية التي ناضل دونها الإمام وأبنائه، أكثر مما كان متاحاً لمعاصريها.. فهم كانوا ينظرون إليها من خلال حدسهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبي سفيان، وحين تنتهي إلى أبدى أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين. أما نحن اليوم، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدس أو احتمال.. إنَّ ما كان حَدْسًا بالأُس، قد صار حقيقة.. وما كان احتمالاً وظناً، أصبح واقعاً وتاريخاً..

فها هو ذا معاوية، لا يكتفى باغتصابه الخلافة، ثم لا يرغب وهو على وَشْك لقاء ربه في التكفير عن خطئه، تاركاً أمر المسلمين للمسلمين.. بل يُمعن في تحويل الإسلام إلى مُلك عضوض وإلى مزرعة أموية..!!

فيأخذ البيعة ليزيد كولي عهد له.. يأخذها بالذهب، وبالسيف.. ثم ها هو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته، فيهمل أمر المسلمين، ويعكف على اللهو بفهوده وقُروده حتى يلقَّب بـ "يزيد القرود"!!

ثم يسلط من قواده ورجاله من يُنزلون بالعباد والبلاد من الهول ما يخجل الشيطان نفسه من اقترافه..!! فابن زياد، في الكوفة والبصرة، يحزّ رأس كل من تُسوّل له نفسه أن يقول: لِمَ..؟

ثم يقتل أبناء الرسول ﷺ وأحفاده وآل بيته في كربلاء قتلاً تناهى في البشاعة والرجس..

ومسلم بن عقبة، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة
ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام، يصنع بها وبأهلها من الوحشية
والجريمة ما يتعاضم كل وصف..

وحتى مكة بمسجدها الحرام، يُرسل إليها "يزيد القروذ" من
يستبيح، ويستبح مسجدها الحرام.

ثم حين يختفى بيت أبي سفيان بموت يزيد، ويسطو على الخلافة
بيت مروان، وهو شعبة أخرى، وامتداد آخر للأمويين يظهر الحجاج
لينشر الخراب والدمار والقتل في كل مكان باسم الأمويين، وفي سبيل
دعم ملكهم ووثيتهم..

هذه الأحوال كلها، والتي نراها نحن اليوم بعد وقوعها، كان
الإمام عليّ يحسّها ببصيرته قبل وقوعها..

كان بإلهامه الصادق يرى كل ذلك المصير، فقام قومته ليمنع
الكارثة قبل نزولها..!!

وقام من بعده ابنه العظيم "الحسين" ليمنع امتداد الكارثة
واستمرارها..!!

وهكذا نرى أن معركتهم الجليلة الباسلة لم تكن معركة حق
شخصي في الخلافة..

ولا معركة ثأر جاهلي قديم..

* * *

إن الذي أدركه الإمام.. قبل وقوعه، فنهض يتحاماها، كان يدركه
معه أولئك الذين وقفوا في صفه، وصمدوا معه إلى النهاية في إخلاص
مكين.

أدركه الصحابي الجليل "عمار بن ياسر" الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم:

"اهتدوا بهدي عمار" ..

والذي قال عنه أيضاً: "تقتل عماراً الفئة الباغية" ..

والذي أجمع الصحابة بلا استثناء، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعه وصدق نهجه وعظمة روحه.

أدرك "عمار" نفس المصير وآمن بذات القضية، فصمم على الخروج للقتال مع "الإمام علي" .. مع أنه يؤمئذ كان قد جاوز التسعين من عمره.

إنه لم يجد عملاً أفضل من ذلك العمل، يختم به حياته المجيدة، فراح يصول ويقاتل، ملخصاً إيمانه بقداصة القضية التي رفع "الإمام" لواءها في هذه الكلمات المضيفة الثائرة:-
 "أيها الناس!!

سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان، والله ما قصدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرواها، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيه من شهواتهم ودنياهم..

وما كان لهؤلاء سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين أو الولاية عليهم..

ألا إنهم ليخادعون بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان.. وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكاً!!

والذى نفسى بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ
وهأنذا أقاتل بها اليوم...!!

والذى نفسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرٍ، ما
وهن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل"...!!

إنها قضية تفوقتُ بعدالتها ويقداستها حتى على النصر ذاته..!
فلم يعد النصر مزيةً لها.. كما لن تكون الهزيمة إزراءً بها..!
هكذا عاشت فى ضمائر أهلها وشهادتها.. كما عبرَ وصورَ.. عمَّار
بن ياسر.. فى كلماته السالفة:

"والذى نفسى بيده، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرٍ، ما
وهن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل"...!!

* * *

وإذا كان للحديث بقيةً تزيدنا إدراكًا لقداسة القضية التى ذهب
"الحسين" شهيداً لها، كما ذهب أبوه "الإمام" من قبل شهيداً.. وكما
ذهبت معهما ثلَّةٌ مباركة طاهرة من صفوة المؤمنين والأصحاب - فلتكن
هذه البقية شهادةً شاهدٍ من أهلها...!!

وهذا الشاهد هو: "معاوية بن يزيد" ثالث خلفاء بنى أمية.
فقبل أن يموت - يزيد - فى العام الرابع والستين للهجرة، خلع
الخلافة، أو بتعبير أصحَّ خلع الملك على أكبر أبنائه - معاوية - الذى
عُرف باسم "معاوية الثانى".

وكان "معاوية" هذا، شاباً تقيّاً، ورعاً، عابداً..
وسبحان من يُخرج الحى من الميت، والهدى من الضلال..!
وعلى الرغم من أنه تسلَّم الملك شاباً لم يجاوز الخامسة والعشرين

فإن تقوى روحه، كانت أقوى من إغراء شبابه، فلم يلبث في منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال:

"أيها الناس!!

إن جدّي معاوية، نازع الأمر أهله، ومن هو أحق به منه لقرايته من رسول الله ﷺ وسابقتة في الإسلام، وهو: علي بن أبي طالب

ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته، فصار في قبره رهين أعماله..

ثم تقلد أبي - يزيد - الأمر من بعده، فكان غير أهل له.. ركب هواه، وأخلفه الأمل.. وقصر به الأجل، ثم صار في قبره رهين ذنبه، وأسير جرمه!!

وإن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه، وقد قتل عشرة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم، وخرّب الكعبة!!

وما أنا بالمتقلد أمركم، ولا بالمتحمل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم..

والله، لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظاً.. ولئن كانت شراً؛ فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا..

ألا فليصل بالناس حسّان بن مالك، وشاوروا في خلافتكم، يرحمكم الله!!

ثم غادر منبره إلى داره، ولبث بها عاكفاً على عبادة الله، حتى لقيه

راضياً مرضياً..

إن هذه الكلمات التي قالها "معاوية الثاني" ابن - يزيد - وحفيد - معاوية بن أبي سفيان - لتشكل برهاناً باهراً على عدالة القضية التي هي في غنى عن كل برهان..

وهذا الشاب الصالح الذي أثقلت ضميره الحر أوزار آبائه، قدم بموقفه ذلك.. أو بالأحرى قدم القدر به وبموقفه وثيقة الإدانة كاملة وصادقة لأولئك الذين وقفوا من الإمام، ومن أبنائه، ومن القضية التي حملوا مشعلها، مواقف الكيد والعداء.

وإننا اليوم، وبعد مضي ما يقرب من أربعة عشر قرناً على ذلك الصراع، لنجد حرارة الصدق ووضوح الحق في موقف "الإمام على" من "معاوية" .. ثم في موقف "الحسين" من يزيد..

إننا نتصور عصر النبوة، كما كان في عهد منسبته ويانيه محمد رسول الله ﷺ .

ثم نتصوره كما كان في عهد خليفتيه النادرين الباهرين "أبى بكر وعمر"، فنرى جلالاً يسحر القلوب والألباب..! وبأخذنا الأسى ونحن نرى بعض الغواشي تغشى ذلك الجلال في عهد "عثمان" لا بسبب قصور في صلاحه وتقواه.. بل بسبب ذلك النفر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم.. وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لها دورها المستوول^(١).

ثم تشرق الآمال في عودة ذلك الجلال لمطالعه العظيمة، وتألفاته الباهرة، حين يلقي عبء الخلافة على سليل بني هاشم، وتلميذ الرسول

(١) راجع كتابنا "خلفاء الرسول".

﴿، وبطل الإسلام "على"!!﴾

ذلك أنه - كما تُطالِعنا سيرته - كان - رغم كل الفتن التي سبقت خلافته وصاحبَتهَا - قادراً على إرجاع السيادة لفضائل عصر النبوة. فدينه، وورعه، وزهده، وعلمه، وإخلاصه، وإخبات روحه، واقتدار عزمه..

كل ذلك - وكم كانت حظوظه منه وافية - هِيَأه بفضل الله ونعمته، ليكون في تلك الأيام التي تلقى فيها أعباء الخلافة، الرجل الذي ينتظره زمانه، ومكانه، وتنتظره المناسبة على فائقةٍ إليه وشوق..!!
أجل.. لقد كان بشخصيته وسلوكه وبأخلاقه وبضميره ودينه، من أقدر العالمين على تجسيد عصر النبوة.. بكل قيمه السامية وفضائله العالية..

فهو رجل ورع من أرفع طراز يدخل الكوفة بعد استخلافه، فيرفض أن يسكن قصر الإمارة الباذخ ويقول: "إنه فتنة" .. ثم يأوى إلى بيت من طوب نبيٍّ يشبه أكواخ الفقراء..!! ويعمد إلى بيت المال فيخرج ما فيه ويوزعه على مستحقه، ثم ينضحه بالماء.. ثم يُصلّي فيه لله رب العالمين إيماناً بأن المال في عصره لن يكون فتنة.. بل سيكون رحمة!!
ورجلٌ صدقٍ وشرفٍ من أرفع طرازٍ - يقولون له إن معاوية يتألف القبائل والجماعات بالمال.. فأعط الناس كما يعطى، فيقسم أنه لن يرشو في الحق أحداً.. لن يعطى مال الله الذي ائتمنه عليه لغير من يستحقه..!! ثم يرجونه ويلحون عليه أن يدع الولاية الأمويين في أماكنهم حتى يُبايعوه وحتى تستقر خلافته وعهده، فيرفض ويقول:

"لا والله، لا أدع الله يسألني: لماذا أبقيتهم وهم غير أهلٍ لها ساعةً من نهار"!!..؟

* * *

ورجل ديمقراطية وشورى من أرفع طراز - يخضع لرأى الأغلبية فى موضوع التحكيم، وهو يؤمن أعمق إيمان بأنه خدعة ستتلوها الكارثة.. ولقد حاول إقناع الذين معه بكل ما أوتى من بلاغة وصدق، ولكن دون جدوى.. وعلى الرغم من أنه آنئذ كان فى حرب قائمة بالفعل مما قد يعطيه الحق فى أن يمضى مع اقتناعه، إلا أنه انحنى فى جلال وعظمة لحق الشورى ورأى الجماعة!!..

ويتكرر نفس الموقف حين جرى الحوار لاختيار من يمثلهم فى التحكيم؛ فلقد نادى قوم باختيار "أبى موسى الأشعرى" وراح الإمام يفند اتجاهاتهم، ويدعوهم لاختيار "عبد الله بن عباس" أقدر الناس على مواجهة الداهية "عمرو بن العاص" الذى سيمثل معاوية فى التحكيم، ولكنهم أصرّوا، وكانوا أغلبية، فتخلى عن رأيه لرأيهم.. ورجلٌ عدالة ورحمة من أرفع طراز لقد كان فى أمسّ الحاجة إلى مؤازرة ولّاته فى موقفه العسير.. وكان ذلك يقتضيه الملاينة فى محاسبتهم.. لكنه يرفض دائماً أن يطلب النصر بالجور!!..

ومن الجور عنده أن يتغافل عن أية هفوة من ولّاته، وهكذا راح يحاسبهم بعدالة صارمة، حتى خسر نصرة الكثيرين منهم دون أن يُلقى لهذه الخسارة بالاً!!..

وأى صورة للعدالة وللرحمة يمكن أن يرقى إليها حاكم كهذه الصورة التى يتجلى فيها "ابن أبى طالب" ودماءؤه تنزف وأجله يسرع،

وقد جىء إليه بقاتله، فلا يشغل باله ولا يورق حياته فى لحظات وداعها سوى مصير قاتله.. وحين يقدر على الكلام تنفجر شفاته عن هذه الكلمات:

"يا بنى عبد المطلب!! لا ألفينكم تخوضون فى دماء المسلمين خوضاً، تقولون: قُتل أمير المؤمنين.. أحسنوا نزلَه - يعنى قاتله - فإن أعش؛ فأنا أولى بدمه قصاصاً أو عفواً.. وإن أمت؛ فاضربوه ضربة بضربة..

ولا تمثلوا بالرجل؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إياكم والمثلة، ولو بالكلب العقور"!!

* * *

ورجل نُسك من أرفع طراز، غزير الدمعة من خشية الله، دائم الإخبات لله.. يلبس أحشن الثياب، ويأكل أجشَب الطعام.. ويحيا بين الناس كواحد منهم..

وكان نسكه كخليفة يتمم نسكه كعابد، فكان يأبى إلا مشاركة الناس فى كل ما ينزل بهم من ضرّ وشظف.. ويخص نفسه من ذلك بالنصيب الأوفى..!!

ولقد لخص لنا نسك خلافته وإمارته فى هذه الكلمات:

"أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين، ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان..!!؟

والله، لو شئت لكان لى من صفو هذا العسل، ولباب هذا البر، ومناعم هذه الثياب..

ولكن، هيهات أن يغلبني الهوى؛ فأبيت مبطانًا وحولى بَطُونٌ غَرثسى
وأكبادُ حَرَى"!!

* * *

هذه الومضة من حياته ومن عظمة منهجه وسلوكه، تصور على نحو
متواضع القضية التي نهض يقاتل من أجلها.. قضية استمرار عصر
النبوة بكل فضائله ومزاياه؛ وإنها لقضية جديرة بولاء لا ينتهى،
وتضحيات لا تفنى.. وهى لم تكن بالنسبة للإمام "على" قضية خاصة،
ولا قضية شخصية، بل هى قضية الإسلام كله، وقضية كل مؤمن وأواب،
وإذا كانت الأقدار ستؤثره وأبناءه من بعده، بأن يكونوا أعظم
شهداءها وأشرف قرايينها؛ فلتكن مشيئة الله..

إن هناك من يموتون من أجل الباطل، ومن يموتون فى سبيل
الحق؛ فما مزية الحق على الباطل فى مجال التضحية والفداء..؟؟
مزيته أن ضحاياه شريفة ورفيعة وغالية.. بينما ضحايا الباطل
صغيرة دنيئة مُحَقَّرَةٌ..!!

فليكن هو وأبنائه شرفًا للحق فى مماتهم واستشهادهم، كما كانوا
شرفًا له فى مَحياهم..!!

وهكذا كان من الصعب عليه، بل من المستحيل أن يترك قضية
الإسلام للأهواء التى هبَّت عليه جائحة، جامحة.
كانت "المُهادنة" مستحيلة..
وكانت "المُسايرة" أكثر استحالة..

ولم يكن أمامه سوى أن يحمل سيفه وكفَّنه، ثم يمضى..
فللمسئوليات العظام خُلِقَ.. وللتضحيات يعيش..

وإنه لسليلُ بيتٍ، كانت العظمة دثاره، حتى فى الجاهلية وقبل الإسلام..

وإنه لتلميذُ دينٍ نشأ، ونما، بين أروع التضحيات وأشرفها وأسمها..

إنه لحوارى رسولٍ جعل صلاته، ونسكه، ومحياه ومماته لله رب العالمين..

فأين يذهب من هذا كله..؟؟

وأين يذهب منه أبناؤه الذين رباهم على نهجه، وغذاهم بفدائيته..؟؟

وماذا ينتظره وينتظرهم من أخطار..؟؟

الموت..؟ القتل..؟ الشهادة..؟

ليأت الموت، وليأت القتل، ولتأت الشهادة!!

ليجىء ذلك كله مرة، وعشراً وألفاً.. فذلك دورهم فى الحياة: أن يعلموا الناس فى جيلهم وفى كل الأجيال، أن الوقوف إلى جانب الحق، والتضحية المستمرة فى سبيله هما أصدق مظهر لشرف الإنسان وقداسة الإنسان..!!

أليسوا آل بيت رسول الله ﷺ الذى قال:

"والذى نفسى بيده، لو ددت أن أقتل فى سبيل الله، ثم أحيأ، ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل"!!..

بلى.. إنهم أهله وأبناؤه..

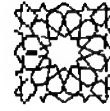
ولقد حملوا مصايرهم فوق أكفهم، ومضوا إلى مسئولياتهم فى

حُبور..!!

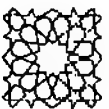
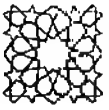
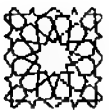
لم يكن هناك ما يزعجهم، سوى أن الحرب التى يخوضونها
مضطرين ليست من نوع تلك الحروب التى كانوا لا يلاقون فيها سوى
جيوش الوثنية والشرك، فيفلئون سلاحها ويُسوون أقدارها بالتراب..!!
ورغم ضراوة الظروف التى فُرِضت عليهم القتال، ورغم إلحاحها
الدائب، فإن إيمانهم بأهمية السلام لم يَعدَم من يُجسِّده من آل البيت،
فيقدم فى سبيل حَقن الدماء تضحية أخرى عظيمة..!!
ذلكم، وهو "الحسن بن على" رضى الله عنه وأرضاه.
فإلى الكوفة.. لنشهد موقفه، ونقفَ خُطاه..



الفصل الثالث



السيد يفرض السلام



عندما كان "الإمام على" يجود بروحه الطاهرة على أثر ضربة غادرة تلقاها من مغتال أثيم، سأل بعض أصحابه أن يستخلف من يختار من أبنائه وأهله فأبى.. ودعاهم أن يختار الناس بعد موته من يحبون ويرتضون.

أجل.. لم يوص لأحد من أبنائه بالخلافة، فقد كانت هناك وصية أخرى تشغل باله ويدخرها لهم. فدعا إليه "الحسن والحسين" وقال لهما:

"أوصيكما بتقوى الله..

ولا تبغيا الدنيا؛ وإن بغتكما.. ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما..

افعلا الخير..

وكونا للظالم خصما، وللمظلوم عوناً..

كلمات جديدة بصاحبها، ووصية جديدة بموصيها..!!

* * *

وتلفت الناس حولهم، ف وقعت أعينهم وقلوبهم جميعاً على رجل واحد بسطوا إليه أيمانهم مبايعين.. كان ذلك الرجل الكريم

"الحسن بن علي" الذي كان أكبر أبناء الإمام الشهيد.
وتلقى "الحسن" البيعة على أثر فراغه من الصلاة على أبيه ودفنه..
تلقاها كارهاً دون أن يتركوا له حق الخيار والاعتذار. إذ قام
"قيس بن سعد بن عباد" بطل الأنصار والإسلام، فبايع "الحسن"، حيث
تقدمت على أثره الجموع الحاشدة، ثم الجموع الوافدة..
ولم يكد الأمر يستقر للحسن.. ولكن لا.. فإن الأمور يومئذ كانت
أبعد ما تكون عن الاستقرار!!
ولقد كانت حلقة الأحداث تجعل من قبوله البيعة؛ فالخلافة
تضحية من أكبر التضحيات.
ولعل شيئاً ما، لم يُعْنِ "الحسن" على تقبلها مثلما أعانه ذلك الأمر
الذي وقر في صدره منذ يفاعته وشبابه.
ذلكم هو حبه الوثيق للسلام، ونُبوءة الرسول ﷺ له منذ طفولته بأن
الله سيحقق به دماء المسلمين في يوم من الأيام.. إن أصحاب رسول
الله ﷺ يذكرون ذلك اليوم الذي صعد فيه الرسول ﷺ منبره، وقد صحب
حفيده "الحسن" وكان طفلاً يحبو، حيث أجلسه إلى جواره، وضمه
إليه، وقال:

"إن ابني هذا سيد.."

وعسى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين."

والآن، يجيء الأوان المناسب - أوفى ما تكون المناسبة - لتحقيق
هذه النبوءة الصادقة!!

وها هو ذا أمير المؤمنين "الحسن بن علي" يواجه المواقف

بنقديرين:

أحدهما نابع من طبيعته وشمائله..

وثانيهما، منبعث من ظروف المعركة وآثارها..

فأما عن الأول؛ فقد كان الحسن بطبيعته يؤثر السلام على الحرب وكان يألف الأناة، ويختار في معالجة المشكلات أقرب الحلول من السكينة والقصد..

وعلى سبيل المثال، نراه حين حوصرت المدينة في عهد الخليفة "عثمان" وحوصرت دار الخليفة نفسها، واستنفذ الإمام "علي" طاقته وجهده في إطفاء الفتنة دون جدوى. يتقدم هو لأبيه الإمام برأيه في أن يغادر الإمام المدينة؛ حتى لا يُقتل الخليفة وهو بها فيتخذها خصومه وحُسادَه مادة للتشويش حوله..!!

وكذلك حين استشهد الخليفة "عثمان" وعرض الثوار الخلافة على "الإمام علي" فرفضها، ثم عُرِضت على آخرين من الصحابة فلم يكن أمامهم سوى الرفض تأسياً بـ"علي".. ثم زحفت القوضى تهدد كل شيء فعاد الثوار إلى "علي" ومعهم قادة الصحابة المسلمين يلحون عليه بقبولها فقبلها مُكرهاً..

يومئذ، كان للحسن رأي آخر يتسق مع طبيعته، فحواه أن يرفض أبوه البيعة، حتى تأتيه بإجماع المسلمين من كافة أقطار الدولة..!!

ولقد كان يعلم أن البيعة تنعقد شرعاً وعرفاً بمن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار. لكنه إمعاناً في نُشْدان السكينة وتجنب الفتنة، رأى أن يركب "الإمام" الصعب من الأمور، وينتظر مهما تكن الظروف بيعة جميع الأقاليم..

ومثل ثالث: موقفه حين خرجت "السيدة عائشة" ومعها "طلحة والزبير" إلى البصرة، ليحرضوا أهلها ضد قتلة "عثمان".

يومها رأى "الإمام على" وقد أصبح بحكم خلافته مسئولاً عن أمن الدولة وسلامة الأمة.. رأى أن يخرج وراء هذا الركب ليلوى زمامه عمّا عساه يُثير حرباً أهلية، ويشجع حكام الشام على التمرد والعصيان..!

لكن "الحسن" استجابة لطبيعته المسالمة، رأى أن يبقى أبوه بالمدينة بل وأن يعتكف في داره حتى تمر الفتنة بسلام..!!
هذه المواقف الثلاثة تكشف عن طبيعة صاحبها، وعن مدى تعلقه بالأناة، وإيثار السلام.

وأما عن التقدير الثاني، الذي أزعجته ظروف الحرب وآثارها، فإن الحرب التي خاضها "الإمام على" كانت قد فجّرت من المشاكل والهموم ما يهدّد الجبال.

وكانت آثارها المرهقة، قد أجهدت المجتمع والدولة كليهما.
وكان "الحسن" وهو يتلقّى البيعة يمينه، يرنّ في سمعه صدى كلمات أبيه الناقمة والآسفة التي وجهها في أخريات أيامه لأهل الكوفة الذين كانوا - وهم أنصاره - أشدّ إرهاباً له من خصومه..!!

".. أما والله لوددت أن الله أخرجني من بين أظهركم، وقبضني إلى رحمته من بينكم..

فقد والله ملأتم صدري غيظاً، وجرّعتُمونى الأمرين أنفاساً، وأفسدتم على رأيي بالعصيان؛ حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب..

لله أبوهم!! هل كان فيهم أشد لها مراساً وأطول معاناةً منى...؟؟
لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين.. وهأنذا اليوم وقد عدوتُ
الستين.. ولكن، لا رأى لمن لا يُطاع"!!!
كانت هذه الكلمات للإمام، يُدوَى فى سمع "الحسن" صداها..
كما كانت تلح عليه فى وضع نهاية للصراع الذى حاول أبوه أن يتحاماه
دون جدوى.

ولكن ذلك لا يعنى بحال أنه آثر السلام وهو فى "مركز ضعف" لا،
بل أثره وهو فى "مركز قوة" مكين.
يقول "الحسن البصرى" رضى الله عنه:

"استقبل والله الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال فقال
عمرو بن العاص لمعاوية: إنى لأرى كتائب، لا تولى حتى تقتل أقرانها،
فقال معاوية: إذا قتل هؤلاء أولئك، فمن لى بأمور الناس".
ورغم ما كان بأهل الكوفة من تفسخ وتردد؛ فقد كان تحت تصرف
"الحسن" حين آثر السلام أربعون ألف مقاتل، يُشكّلون جبهة واحدة،
قوية وصامدة.. تحت إمرة رجل من أعظم رجال الإسلام وقوّاده - ذلكم
هو: "قيس بن سعد بن عبادة" ..

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية تصميمًا
حمل بعضهم على مُجابهة "الحسن" حين رأوه يعتزم الصلح وإقرار
السلام مجابهة قاسية وعنيفة رغم حبهم له وتوقيرهم إياه.
هو إذن لم يؤثر السلام على ضعف ولا عن عجز.
ولم تكن الظروف العسيرة التى تسلم الخلافة فيها لتجاوز قدرها

فى كونها مجرد "موضوع" لتفكيره فى السلام..
 أما "مصدر" تفكيره فى السلام فكان طبيعته وخصاله.
 وهكذا قرر أن يعرض، بل أن يفرض السلام على معاوية..
 وقولنا "يفرض" السلام، تعبير لا مبالغة فيه؛ فقد تغلب على ظروف
 كثيرة لكى يجعل السلام حقيقة ناجزة.
 وحسبنا أن نعلم أن أخاه "الحسين" مضى شوطاً بعيداً فى معارضته
 حتى قال له "الحسن":
 "لقد هممت أن أحتجزك فى دار موصدة الأبواب، ثم لا أدعك
 تخرج حتى أتنهى مما أريد.."

* * *

كان "معاوية" قد تحرك بجيشه من الشام قاصداً الكوفة. عندما
 علم باستشهاد الإمام واستخلاف الحسن..
 وكان الحسن قد خرج على رأس جيشه للقاءه.
 وإذ هم فى طريقهم إلى المدائن، نهض بين صفوف جيشه وقال:
 "إنى قد أصبحت، لا أحمل لمسلم ضغينة:
 وإنى ناظر إليكم، نظرى إلى نفسى، وقد رأيت رأياً؛ فلا تردوا على
 رأيى:

إن الذى تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة"!!..
 وثار الجيش - كما ذكرنا من قبل - لكنه كان قد وطّد عزمه على
 حقن الدماء.

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام تَوَقُّ الغريق إلى زورق النجاة..
 فأرسل مبعوثين إلى المدائن، للتفاوض مع "الحسن" وكانا: عبد

الرحمن بن سَمُرَةَ.. وعبد الله بن عامر.. أبلغهما "الحسن" شروطه التي لم يكد معاوية يسمع فيها بعد، حتى تقبلها في غير تردد أو تساؤل.

وتركزت شروط "الحسن" للصلح في هذه البنود الأربعة:

أولاً: أن ترجع الخلافة بعد معاوية إلى المسلمين حيث يختارون بمشيئتهم الحرة، من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر.

ثانياً: ألا يؤخذ الذين ناصروه وناصروا أباه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاوية، وألاً يُحرم أحد منهم حقه وعطاءه.

ثالثاً: أن يُكف الأُمويين عن حملة السباب واللعن التي يقتربونها ضد الإمام، ويشجعون عليها..

رابعاً: أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه "الحسين" وافرًا وجزيلاً. ولقد حدّد بنفسه مقدار هذا العطاء.

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يلتبس علينا أمره، ويحتاج إلى مناقشة وتفسير، فذلكم هو الشرط الرابع والأخير.

لقد يبدو غريباً أن يُفرط رجل مثل "الحسن" بن علي، وحفيد الرسول ﷺ في طلب عطاءٍ كثير له ولأخيه.

ولكن، كما يقال: إذا عُرف السبب، بطل العجب..

وحسبنا أن نعرف فيم كان ينفق "الحسان" أموالهما لنذكر على الفور الحكمة في هذا الاشتراط.

وقبل هذا، علينا أن نذكر أن ميزانية الدولة الإسلامية، كانت أيامئذ قد بلغت مدى هائلاً من الكفاية والثراء.

وبدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام في عهد "عمر".

وفى عهد معاوية، كانت أموال غزيرة تُنفق وتُبعضر في سبيل دعم حكمه وتركيز الولاء له.

بينما كان "الإمام على" وهو خليفة مسئول في العراق يعطى المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسوية، رافضا أى تمييز أو سرف..!! حتى لقد أغضب بعض أنصاره، حين رفض أن يتألف الناس بالمال، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها، قائلا عبارته المأثورة: "أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور"؟!

والآن، بعد أن يتصالح الحسن ومعاوية ويصبح أمر الخلافة كله له، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو الذى يشرف عليه معاوية بحكم سلطته وسلطانه.

و "معاوية" يعطى الأموال وفق مقاييسه الخاصة..

فماذا يكون الموقف إذا أخلف صلحه أو بعض صلحه غدا، فكف العطاء أو بخل عن بعض أولئك الذين كانوا من قبل يناصرون "الإمام" ويناصرون "الحسن"؟؟

لابد للحسن إذن أن يتحوط لهذا الاحتمال..

وهنا يفضى بنا الحديث إلى حيث نعرف أين كان ينفق "الحسن" والحسين "أموالهما..

لقد كانا يعودان بالكثير منها على نفر من الذين فقدوا ثرواتهما فى سبيل القضية التى ناصروا فيها الإمام.

وكانا يغدقان برهما ونداهما على أولى الأرحام، وعلى الفقراء والمساكين..

لقد انفرد "الحسن" بأنه الرجل الذى قاسم الله ماله ثلاث مرات..

وخرج عنه كله مرتين...!!

ورجل هذه شيمته، لا يطلب المال ليترف به، إنما يطلبه ليؤدي به حقوقا كثيرة، أهونها كفالة الأرامل والأيتام الذين استشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام...!!
فمن أجل تلك الحقوق، ومن أجل شغفه بالخير والبر اشترط لنفسه ولأخيه وفرة العطاء..

وحسبنا في هذا المقام شهادة "معاوية" نفسه، فذات يوم أعد أحمال الهدايا التي كان يرسلها بين الحين والحين لصفوة الصحابة في مكة والمدينة.

وبينما القافلة تنهياً للسفر، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم: "إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا .."

ثم راح يسمى بعض الأسماء، ويسوق الحديث عنها، حتى جاء ذكر "الحسن والحسين" فقال:

".. وأما الحسن، فلعله يدع لزوجاته بعض الطيب، ثم يترك لمن حوله كل شيء...!!

وأما "الحسين" فيبدأ بأيتام الذين قتلوا مع أبيه في صفين فإن بقي بعد ذلك شيء نحر به الجزر، وسقى به اللبن...!!

أجل.. هذه شهادة "معاوية" .. وفيها فصل الخطاب!!

ومن فصل الخطاب أيضا، أن العطاء الجزيل الذي فرض لهما، لم يكن يكفيهما، مع أنهما لم يعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين..!!

ولقد تراكم على "الحسين" دين ثقیل، وانتهز معاوية الفرصة

فعرض عليه قدرا كبيرا من المال يقضى به ديونه، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام "على" بالمدينة، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها، يرتوون منها بغير حساب.. ورفض "الحسين" هذا العرض.. فقيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقوم لا يحيون في ترف ولا في سرف..؟!

إنها كانت بسبب حقوق مذخورة، وعطايا مبرورة تعودها الكرام، أبناء الكرام..!!

قبل معاوية شروط الصلح من فوره، وتنازل له الحسن عن الخلافة وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق.. وفي الجمع الحاشد من المسلمين، دعا "الحسن" لإلقاء كلمة، فوقف "الحسن" والأبصار شاخصة إليه، والأنفاس معلقة بشفتيه اللتين لا يدرى أحد عن أى نوع من القول ستنفرجان.. وجاءت كلماته في تلك المناسبة على وفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم..!!

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:
"أيها الناس..

إن الله هداكم بأولنا.. وحقن دماءكم بآخرنا.. ألا إن أكيس الكيس التقى، وإن أعجز العجز الفجور.. وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه ومعاوية: إما أن يكون أحق به مني، فقد تركته له..

وإما أن أكون أحق به منه فقد تركته لله عز وجل، ولخير أمة محمد ﷺ وحقن دمائها..

ثم التفت صوب معاوية وقال:

(وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)!!..

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصلاتها في مثل هذه المواقف وبمثل هذه الكلمات.. حيث يلتقى الصدق، والقوة، والترفع، والحكمة أسعد لقاء..!!

ومضى كل إلى سبيله..!!

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض.. و"الحسن" إلى المدينة، قرير العين بما حقن من دماء، عظيم الغنم بما بذل من فداء.. مرددا كلماته المضيئة هذه:

"لقد كانت جماجم العرب بيدي في العراق، تسالم من سالمت.. وتحارب من حاربت.. ثم تركتها ابتغاء وجه الله"!!..

ولقد وفى بعهده مع معاوية. ووفى بالعهد معه أخوه "الحسين" الذى كان قبل إبرام الصلح من أشد معارضيه. ترى، هل سيفى معاوية؟ أم أن إغراء السلطة المطلقة سيجشمه مشقة الوفاء..؟؟

على أية حال، فقد أدى الحسن ما اعتقده واجبا، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهل له.

لقد ترك للآخرين دنياهم، وعكف هو على الطاعة، والعبادة والخير..

عابدا: يحب الله ويخشاه، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعواما كثيرة ماشيا على قدميه والنجائب تقاد بين يديه، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب:

"إنى أستحى أن ألقى ربي، ولم أمش على قدمي إلى بيته"!!..
 جوادا: لم يكن يبقى من ماله شيئا.. لا يعرف مكروبا إلا فرج
 كربته، ولا غارما إلا قضى دينه..
 سيدا: لا يعرف الدنية ولا يقبلها، ولا يعرف السوء طريقا إلى
 لسانه ومقاله..

يقول "محمد بن إسحاق"

"ما رأيت أحدا كان إذا تحدث تمنيت ألا يسكت، مثل الحسن بن
 علي.. وما سمعت منه كلمة سوء قط.. وإن أشد كلمة سمعتها منه، هي
 تلك التي قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان، فقال
 الحسن: ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه.. تلك أشد كلمة سمعته
 يقولها"!!..

ولقد تحدث رضى الله عنه راسما للناس صورة المؤمن المثالى
 الرشيد، فقال:
 "إنه من تصغر فى عينه الدنيا ويخرج على سلطان بطنه، وفرجه،
 وجهله..

لا يسخط ولا يتبرم..

إذا جالس العلماء، كان على أن يسمع أحرص منه على أن
 يتكلم.. وإذا غلب على الكلام، لم يغلب على الصمت..
 لا يشارك فى ادعاء ولا يدخل فى مراء..

لا يغفل عن إخوانه، ولا يختص نفسه بخير دونهم.
 وإذا تردد بين أمرين، لا يدرى أيهما أقرب إلى الحق. نظر أيهما
 أقرب من هواه، فخالفه واتقاه"!!..

هذه خلاصة لدستور ومنها ج نفسه، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذى سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه ينميها ويزكيها..؟! بلى.. ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله ﷺ.. ولم يكد تنزاح عن الناس فى شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف وصراع، حتى راحت أرواحهم تهفو نحو المدينة، وخواطرهم تطوف من قريب وبعيد حول ريحانتى رسول الله ﷺ..

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدى ونور، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء.. وراحت مجالسهم وندواتهم فى كل بلد تردد ما نقله الثقات من أصحاب الرسول ﷺ عن حبه لابنيه "الحسن، والحسين".

كان الناس يسمعون ويتناقلون أنباء هذا الحب العظيم الذى أضفاه عليهما جدهما النبى ﷺ، فتكاد أفئدتهم تطير شوقا إليهما.. حتى بعض أولئك الذين ناصبوهما من قبل العداء.

وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التى تصور قدرهما، والتى حباهما الرسول بها كثيرا:

"الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة، بعد عيسى ويحيى عليهما السلام.."

"هذان ابناى.. وابنا ابنتى.. اللهم إنى أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما.."

"اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا.."
"الحسن، والحسين ريحانتى من الدنيا.."

"حسين منى، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا" ..

وهكذا استولى على الناس ولع نبيل، بتتبع أنباء حياتهما - مذ
أهلا على الحياة..

كيف اختار الرسول ﷺ بنفسه اسميهما..؟ كيف كان يدا عبهما..؟
كيف كان يحزن أن يسمع بكاءهما..؟

وراحت الوفود من كل مصر تشد رحالها إلى المدينة لتلقى بها
ابنى رسول الله ﷺ وأحب الناس إليه، ولترتشف من حكمة "الحسين"
الذى عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول ﷺ..
وكانت حلقات درسه غاية في الجلال والمهابة..
وصفها معاوية نفسه فقال:

"إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على
رءوسهم الطير؛ فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين" ..

كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاية معاوية واستهتارهم، يغذون
السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى "الحسن والحسين" فيدعوان
الناس للصبر، ويرسلان لمعاوية بالنصح..

ترى، هل سيصبر بيت أبى سفيان على هذه المكانة المتصاعدة
دوما في قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته..؟؟
كلا... .

وذاث يوم، دس للإمام الحسن السم فى الطعام..!!!

ويمسك التاريخ فى هذه الجريمة الدنيئة، بإحدى زوجاته وهى -
جعدة بنت الأشعث بن قيس - كما يمسك بأصبع الغدر الأموى.. ومن

عجب أن الأشعث بن قيس، والد جعدة - كان من أبرز أنصار الإمام على.. ثم كانت له أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة، ومحاولات مريبة.. كانت سببا في أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار..!!

ومرض "الحسن" عليه السلام مرض الموت.
وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألفة، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفى، والسقم الفاجع الأليم!!
ففى علته هذه، أخذ أخوه "الحسين" يلح عليه كسى ييوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء.
لكن حفيد الرسول العظيم ﷺ، لا ينسى مبادئه تحت سحق آلامه فيسأل أخاه:

"وفيم سؤالك عمن سقانى السم..؟

أتريد أن تقاتلهم..؟

لا.. إنى أكل أمرهم إلى الله..!!

انظروا..

إنه حتى فى غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه، ويبقى رجل الأناة والسلام فيه، متفوقا على الألم، وعلى الكراهية.. بل وعلى حقه العادل فى القصاص المشروع..!!
وراح يملأ أيامه الباقية بالصلاة والدعاء، مرددا منها ذلك الدعاء الذى كان جده الرسول ﷺ قد علمه له منذ شبابه.

"اللهم اهْدِنِي فيمن هديت، وعافِنِي فيمن عافيت، وتولَّنِي فيمن توليت، وباركْ لِي فيما أعطيت، وقِنِي شر ما قضيت، فَإِنَّكَ تَقْضِي ولا

يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت تباركت ربنا،
وتعاليت ..

لقد هداك الله - أبا محمد - وعافاك، وتولاك، وبارك لك فيما
أعطاك..

وما تركت مقاديرك العظيمة جرعة السم تأخذ طريقها إليك إلا
لتستكمل بالشهادة والفداء، شرف الانتماء إلى بيت القرايين
والشهداء...!!!

* * *

وبعد.. فقد آن لبطل السلام أن ترف إلى الجنة روحه.
ولكن لا تزال أماننا وصية يريد أن يوصي بها، فقد كان شوقه
عظيماً لأن يدفن مع جده الرسول ﷺ..
وكان قد استأذن "السيدة عائشة" رضي الله عنها في ذلك،
فأذنت له..

والآن، وشمس حياته تميل للغروب قال لأخيه الحسين:
"إذا مت فادفني مع النبي ﷺ، فإنني كنت قد طلبت ذلك من عائشة
وأجابتنى.. وإذا عارضك بنو أمية، فلا تراجعهم وادفني في البقيع..!
ومن أسف أن الذي توقعه قد حدث.. فرفض مروان بن الحكم أمير
المدينة من قبل معاوية أن تحقق رغبة الشهيد المسجى.. وأنزل إلى
الشارع حرسه المسلح في خسة ودناءة تليقان بمروان، وبمن على شاكلة
مروان..!!

ورأى "الحسين" رضي الله عنه ذلك، فانتضى سلاحه، وصمم على

إنفاذ وصية أخيه..

لكن نفرا من الصحابة الأجلاء ذكروه بالفقرة الأخيرة من الوصية وحملوه عليها:

"فإن منعوك، فلا تراجعهم، وادفنى فى البقيع" ..

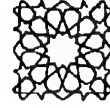
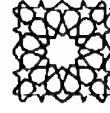
* * *

وشرف ثرى البقيع بهذا الضيف المجيد..

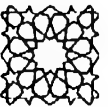
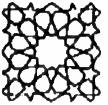
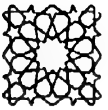
وآبت إلى وطنها فى جنات الخلد روح السيد.. وروح الشهيد!!..



الفصل الرابع



العاصفة تنزأر ..



خلص الملك لمعاوية على النحو الذى أراد.. ويتنازل "الحسن" له عن الخلافة سكنت كل الرياح التى كان يخاف هبوبها على عرشه وحكمه.. فراح يُصرف شئون إمبراطورية من أقوى إمبراطوريات عصره كما يهوى وكما يشاء، وراح يستخدم مزاياه الشخصية وكفايته، كما يستخدم كفاية الذين حوله أبرع استخدام.

راح يوجه كل المزايا وكل الكفايات نحو غاية واحدة هى دعم سلطانه.

فحلمه، ودهاؤه، وعطاؤه.. كل ذلك يسعُ الناس ما تركوه وسلطانه؛ فإذا هدّد هذا السلطان شىء، فالحلم والدهاء، والصبر والعطاء.. أسلحة تنزل إلى المعركة لتدفع عن السلطان مخاوفه.. فإذا عجزت؛ فالسيف والقتل بغير إبطاء!!

وإن له فى ذلك عبارة مأثورة:

"إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم، ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا"!!

ولطالما يحدثنا التاريخ عن قوم كانوا يجبهونه بقوراض الكلم فى وجهه وأمام الناس، فلا يزيد على أن يضحك. ثم يضحك.. ثم يُجزل

لهم العطاء!!

ولقد كتب يوماً لزياد، واليه على الكوفة والبصرة يقول له:
"إنه لا ينبغي أن نسوسَ الناسَ بسياسة واحدة، فيكون مقامنا مقام
رجل واحد..

ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرفافة والرحمة
فيستريح الناس بيننا"!!..

ولو أن معاوية - غفر الله له - كان أكثر اهتماماً بسلطان الإسلام
منه بسلطان بنى أمية، لو فُرض على الإسلام وعلى المسلمين كثيراً من
المخاطر والمهالك التي أفضى إليها حرصه على ذلك السلطان..
لقد جشّمه ذلك الحرص من الشطط ما كان يعود عليه نفسه بالغرم
الأكيد.

وإنا لنذكر - مثلاً - تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره في العطاء وفي
المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر، فهو يُغدق على "اليمانية"
ويميزهم في العطاء. ويجعل لهم كيأناً عسكرياً قائماً بذاته.. ثم لا
يلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم، حتى راحوا يمتنون عليه بما هو فيه من
سلطان، ويقولون: لولا نحن ما كان معاوية.. فيضطرب الأمر في يده
ويعالج الموقف بخطأ جديد حين يتجه إلى قبائل "القيسية" فيُغدق
عليهم الأموال والامتيازات.. ثم لا يُجديه ذلك شيئاً، فيهرق نفسه في
التوفيق بين القوتين الكبيرتين من جديد..

كذلك نرى أن الحلم الذي لم يُعرف في التاريخ بمثل ما عُرف به..
نرى هذا الحلم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لا يغنى عنه شيئاً في درء
صفة القسوة والقتل عن عصره وحكمه.. فمصرع "حجر بن عدي"

وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب،
حدث يُجلّل سلطان معاوية بالسوء..

لقد كان حادثًا بشعًا، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه، وبقي
إلى آخر عمره غُصة تُفرّعه وتُضنيه..

ثم وصيته إلى ولده يزيد أن "إذا خرج عليك عبد الله بن الزبير
فظفرت به فقطعه إربًا.. إربًا!!..

ثم قسوة ولاته، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تُثير غيظ
الحليم!!

وإنا هنا - فى مصر - مثلاً - لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبى
سفيان الذى ولّاه أمرها بعد موت "عمرو بن العاص" إذ استهلّ حكمه
وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الودعاء، وقام فيهم خطيبًا بهذه
القوارع:

"يا حاملى ألام أنف رُكّب بين أعين..!!

إنى إنما قلّمت أظافرى عنكم؛ ليُليّن محسنًا لكم، فأما إذ أبيتم إلا
الطعن على السطان، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم.. فإن
حسّمت أدواءكم، وإلا فالسيف من ورائكم.. يا أهل مصر.. قد كنتم
تُعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم.. وقد وليكم من إذا
قال فعل.. فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه..

إن البيعة شائعة.. لنا عليكم السمع، ولكم علينا العدل!!

* * *

إن للسلطة ضراوة لا تقاوم، إذا هى بسطت إغراءها ونفوذها على
الحاكم يرى فيها غنمًا لا تضحية.. وزهوا لا واجبًا..

ونحن لا نريد الطعن في معاوية؛ فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام، من صحب رسول الله ﷺ وصلى وراءه.. وجلس بين يديه.. وقاتل تحت لوائه.. مفوضين أمره فيما يكون له من خطأ إلى الله..

بيد أننا خلال قيامنا بواجبنا في تحري الحقيقة في هذه القضية التي ندرسها، لا نملك إلا إبداء الأسف الشديد، والجزع الأشد لهذا النهج الذي سار عليه مؤسس دولة الأمويين.. لا سيما حين اتخذ افدح قراراته، وأكثرها ضراوة وبؤساً.. ذلكم هو أخذ البيعة لولده - يزيد - وفرضه على الدولة المسلمة وعلى الأمة المسلمة، الأمر الذي يعيننا الآن بحثه، والذي كان السبب المباشر والأوحد في مأساة "كربلاء" .. وفيما تلا "كربلاء" من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحو أليم وويل.. هذه الأحداث التي كانت هي الأخرى سبباً مباشراً في ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته، ثم انتقال هذا الملك إلى بطن من بطون بني أمية، أولئك هم بنو مروان..

لقد اهتزت أعطاف "معاوية" بالإمارة والملك، أربعين عاماً كاملة.. عشرين عاماً، أميراً.. وعشرين عاماً، ملكاً..

أفما كان يكفيه ذلك، ثم يترك الأمر من بعده لاختيار المسلمين، ليكون في ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذي أبرمه مع "الحسن" رضى الله عنه والذي كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة..؟؟

إن ذلك لم يحدث.. ولقد قرّر معاوية.. بتدبير منه، أو بإيحاء من بعض مشيريه، أو بهما معاً، أن يستبقى السلطان في بيته وأسرته،

واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده "يزيد"..
 فحين أحس خُمود صحته، ودنوَّ نهايته، شرع على عجل يفرض -
 يزيد - على الناس ويهيئ له مكانه..

وبدأ بالمدينة حيث كان بها نفرٌ جليل من بقية الصحابة..
 ولم يكد واليه عليها وقريبه في نفس الوقت - مروان بن الحكم -
 يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا في المسجد الكبير، حتى
 جابهته مُعارضة رهيبة، لقد وقف "عبد الرحمن بن أبي بكر" رضى الله
 عنه يقول لمروان:

"والله، ما الخيارَ أردتم لأمة محمد.. ولكنكم تريدون أن تجعلوها
 هرقلية، كلما مات هرقل قام هرقل.." .

وتلاه "الحسين" رضى الله عنه فرفض في كلماتٍ قواطع هذا العبث
 بمصاير الإسلام والمسلمين.

وتلاه "عبد الله بن الزبير" رضى الله عنه فدمَّم على مروان وعلى
 معاوية بكلمات كألَسنة اللهب..!!

وأبلغ أمر المعارضة إلى معاوية، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر
 في قراره، بل دفعه إلى الإيغال في سرعة إنجازه.

فأرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأمصار، أمراً إياهم أن
 يسوقوا الوفود إلى الشام كي تباع ليزيد..

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأساتها على نطاق واسع، بعد أن أدَّى
 الذهب والسيف دورهما في حمل الناس على البيعة .

ولكن موقف "المدينة" ظلَّ يؤرِّقه، فقرر السفر بشخصه إليها.

وهناك حاول إقناع زعماء المعارضة - عبد الله بن الزبير،
والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، فلما أُعِيَتْه الحيلة لجأ إلى القوة
في مظاهرة مسلحة عجيبة..!!

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا، ولم يتحرك منهم لسان بيعة.. وأمام
مناورة الموت التي فاجأهم بها معاوية، لاذوا بالصمت، فاستغلَّ هو
صمتهم وأذاع في الناس أنهم مبايعون..!!
لقد برَّر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف
والصراع من جديد بين المسلمين..

وإنه لتبرير يُدينه أكثر مما يشفع له..!!
فلماذا خشى الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك إلى يزيد..
ولم يخشهما إذا هو وسَّد الأمر لغير أهله وسَلَّم قيادة الدولة المسلمة
إلى أكثر العالمين بُعداً عن الصلاحية لها، وهو يزيد..؟؟!!
إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر
على أنه - كما قلنا من قبل - سلطان بنى أمية - أكثر مما هو سلطان
الإسلام وسلطان المسلمين..!!

ووضع المسألة على هذا النحو - وهو وضع صحيح - يجعل
المقاومة أمراً محتوماً وقدرًا مقدوراً..
ولقد بدأت المقاومة بامتناع "الحسين" وابن الزبير، وابن عمر،
وابن أبي بكر، بالمدينة عن البيعة..

وبدأت بالتذمر الكالح الذي ملأ صفوف الجماهير في كل مكان
والذي ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون
من يزيد، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر.. كذلك شاع على

ألسنة الذين بايعوا من عامة الناس مكرهين..

ذلك أن "يزيد" كان شاباً عابثاً لاهياً.. والتاريخ يصوره دائماً بين

بطانته، وهى بطانة سوء، يلهون، ويشربون، ويعربدون..

وحتى حين أراد أن يضيف على سيرته بعض التصوّن والوقار،

فأرسله إلى مكة حاجاً، ولم يُغنه ذلك شيئاً، فقد اصطحب يزيد معه

لهوه وعبثه وبطانته..!!

ويزيد، قبل هذا، وبعد هذا، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب

للمكان المناسب.. فهو مُفلس إفلساً تاماً من كل ما كان لأبيه من

دُهاء، وشخصية، وذكاء، ومقدرة..!

فقيم استخلافه..؟ ويأى رُشد وأى ضمير، يُفرض واحد هذا شأنه

على الإسلام وعلى المسلمين..؟!

ثم أين عهده مع "الحسن" رضى الله عنه على أن يترك الأمر بعده

شورى، حيث يختار الناس من يرتضونه..؟!

لكنّ معاوية فعلها - غفر الله لمعاوية..

وفى العام الستين للهجرة مات، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد..

وبدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التى تركها له أبوه قبيل وفاته:

"إنى لا أخاف عليك سوى أربعة رجال:

الحسين بن على.. وعبد الله بن عمر.. وعبد الرحمن بن أبى

بكر.. وعبد الله بن الزبير..

فأما الحسين بن على؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى

يخرجوه إليهم؛ فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه..

وأما عبد الله بن عمر، فرجلٌ قد وقّذته العبادة، ولا يريد
الخلاقة إلا أن تأتيه عفواً..

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر، فليس له عند الناس ما يجعله
يطمح إلى طلبها، أو يُحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً..
وأما الذي سيُجثم لك جثوم الأسد، ويُراوغك روغان الثعلب،
حتى إذا أمكنته فرصة وثبَ عليك؛ فذلك هو عبد الله بن
الزبير.. فإن فعل وظفرت به فقطعه إرباً إرباً، إلا أن يلتمس
منك صلحاً.. فإن فعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بجهدك..
وكفّ عاديتهم بنوالك.. وتغمّدهم بحلمك..

ثرى، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جهداً، أو نوالاً، أو حلمًا
يُعالج به الأمور..؟؟

على أية حال، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل،
وسيق الناس إليه يبايعونه ملكاً، بعد أن بايعوه من قبل أميراً..

واهتزّ كيانه فزعاً، تحت ضغط مشاعره الوجلة لوجود الحسين وابن
الزبير وابن أبي بكر وابن عمر بالمدينة، فكتب على الفور إلى عامله
هناك - الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - بهذا الأمر الحاسم:

".. أما بعد، فخذُ حسيّنا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن
الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر بالبيعة أخذاً شديداً، ليس
فيه رخصة حتى يبايعوا، والسلام.."

واستنجد الوليد بمشورة قريبه مروان، وكان مروان والياً على
المدينة من قبل، ثم سَخَط قرار معاوية أخذه البيعة ليزيد، إذ كان يرى

نفسه بحكم سنه ومشِيخته فى بنى أمية أحق بها وأولى..
ولخص مروان مشورته للوليد فى هذه الكلمات السود: "أما ابن
عمر، وابن أبى بكر، فلا أرهما يريان القتال.. ولكن عليك بالحسين
وعبد الله بن الزبير؛ إليهما فإن بايعا، وإلا فاضرب أعناقهما قبل أن
يذيع فى الناس نبأ موت معاوية؛ فَيُثَب كل واحد منهما فى ناحية"..
هكذا، وبكل يسر واستهتار يُطَوِّح مروان بالرقاب!!
اضرب أعناقهما!!

هذا هو نهج الذين اغتصبوا حق المسلمين فى خلافتهم، وأرادوا
أن يجعلوه وقفاً على أنفسهم وعلى ذرائعهم حتى آخر طفل فيهم وآخر
رضيع!!

ومروان هذا، الذى يُشير بقطع الرقاب، هو الذى سينتقل إليه
الملك بعد أربعة أعوام من مُلك يزيد.. وهو الذى سيظل الملك فى
عقبه حتى يجيء العباسيون بعد عشرات من السنين، لا نرى فيها وفى
كل أولئك الحاكمين من هو للقداسة أهل سوى "عمر بن عبد العزيز"
رضى الله عنه وأرضاه.. هذا الخليفة العادل الذى سيَضْج من مظالم
قومه وعائلته، ويرأى إلى الله منها!!

ونعود إلى الوليد بن عتبة وإلى المدينة، فنراه يرسل فى طلب
"الحسين"، و"ابن الزبير"..

وفى طريقهما إليه يسأل ابن الزبير الحسين:

- ترى فى أى أمر بعث إلينا هذه الساعة..؟

ويجيبه الحسين:

- أحسب أن معاوية قد مات.. وقد بعث إلينا للبيعة..!
 ويعودان أدراجهما دون أن يواصلوا السير إلى الوليد.
 فأما "عبد الله بن الزبير" فقد انتظر مجيء الليل، ثم حمل متاعه،
 وركب راحلته، وسافر إلى مكة..

وأما الحسين، فيأخذ نفرًا من أتباعه، ويسير بهم إلى الوليد في
 دار الإمارة، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار، فإن سمعوا حواراً
 غاضباً بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا
 أريد به السوء.

بيد أن الوليد في هذا الموقف كان خيراً من ألف من طراز
 مروان..

ذلك أنه لم يكد يُنهي إلى "الحسين" نبأ وفاة معاوية، داعياً إياه
 إلى بيعة يزيد، حتى قال له "الحسين" رضى الله عنه:
 "إن مثلي لا يعطى بيعته سراً، فاجمع الناس ليبايعوا، وأبايع على
 ملأ" ..

ولا نستبعد أن يكون الوليد، قد أدرك ما في كلمات الحسين من
 مناورة شريفة، آثر أن يتغافل عنها، حتى لا يلوّث يديه بجريمة العدوان
 الذي أشار به مروان.

لذلك نراه، حين أصبح في اليوم التالي، وجاءه الخبر بأن الحسين
 رحل إلى مكة.. ولامه مروان على نبذ مشورته.. نراه يقول يومها لمروان:
 "أتشير على بقتل الحسين بن فاطمة، بنت رسول الله..؟؟ والله،
 إن الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان

عند الله"!!

* * *

رحل الحسين إلى مكة.. ذلك البلد الحرام الذي يلتمس الناس فيه الأمن والملاذ.

واصطحب معه أختيه "السيدة زينب، والسيدة أم كلثوم" وإخوته "أبو بكر، والعباس، وجعفر" وأولاد أخيه "الحسن" وجميع مَنْ كان بالمدينة من أهل بيته، عدا أخاه "محمد بن الحنفية" الذي آثر البقاء بالمدينة.

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا، عبد الله بن الزبير.

كذلك كان قد سبقه إليها حَبْرُ الأُمَّة "عبد الله بن عباس".

وفى مكة، استقر الحسين وآله.. وأقبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجها على ابن بنت رسول الله ﷺ تلتمس منه الحكمة والهدى والنور.

ولقد كانت مكة آنئذ أنسب مكان يُدبر فيه "الحسين" خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التي تشغله، والوضع الخطير الذي حاق بالمسلمين..

فهنا.. وفي قديم الزمان، كان هاشم، وعبد شمس، أخوان ولدا لعبد مناف.. ومن هاشم، جاء النبي ﷺ، وعليّ، وبنو هاشم أجمعون.. ومن عبد شمس، جاء أمية، وأبو سفيان، ومعاوية، ويزيد، وبنو أمية كافة..

وهنا.. كان هاشم يملأ مكة والجزيرة برأ ومجداً وكرماً، فهو الذي

يطعم الحجاج، ويحمي الدمار، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن
لتعود موقرةً بالخير والرزق للناس، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ:
عَمَرُوا الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ

قَوْمٍ بِمَكَّةَ مُسْتَتِينَ عَجَافٍ
سُنْتُ إِلَيْهِ الرَّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا

سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْيَافِ

بينما عبد شمس مُزْمَعُ أسفارٍ دائماً لا يحمل تجاه قومه ما يجب من
تبعات..

وهنا.. شهدت مكة ذات يوم أروع منجزاتها الأخلاقية والسياسية
يوم أقرت كل قبائلها "حلف الفضول" .. ذلك الحلف كان مضمونه
وقحواه أن تُردَّ الحقوق إلى أهلها، وألاً ينتصر ظالم على مظلون، وأن
يضحي المشتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العدالة لخطر..!!

ومن عجب أن كل قبائل قريش وبطونها، اشتركت يومئذ في هذا
الحلف ما عدا بنو عبد نوفل.. وبنو عبد شمس آباء الأمويين..!!

وهنا يستطيع "الحسين" أن يمد بصره فيرى الدار التي عاش فيها
وينزع منها جده العظيم "محمد رسول الله ﷺ" هاتفاً بكلمة الله، حاملاً
مِغُولَهُ الرِّشِيدَ فِي وَجْهِهِ وَثْنِيَّةَ الْحَجَرِ.. وَوَثْنِيَّةَ الْبَشَرِ..!!

ويستطيع أن يمد بصره؛ فيرى "زمزم" التي حفرها جده "المطلب"
امثالاً لرؤيا صادقة، والتي كانت لقريش حياة ورياً، وصارت للمسلمين
تراثاً ومنسكاً..

ويستطيع أن يمد بصره فيرى الدور التي خرج منها مهديون أبرار،
آمنوا بالرسول ﷺ وآزروه في دعوته ووحدته، وفي مقدمتها دار أبي

بكر.. ثم يرى الدور التي خرج منها أولئك الذين سَخِرُوا من دعوته، واضطهدوا أهله وصحبه، وفي مقدمتها دار أبي سفيان..!

وهنا.. يستطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جده "أبي طالب" وهو يقول للرسول:

"يا ابن أخي، ادْعُ إلى سبيل ربك ما شئت، فوالله لا أُسلمُك إليهم أبداً..".

ثم يقف إلى جواره كالطُود مضحياً براحتيه، وأمنه ومكانته بين قومه..

كما يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدته "خديجة" وهي تقول للرسول:

"والله لا يُخزيك الله أبداً..".

ثم تنهض إلى جواره في وجه قريش واضعة كل ثرواتها وجاهاها في خدمة الدين الحق الجديد..

وهنا.. يسمع الحسين بكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم ﷺ التي تركها للتاريخ الإنساني بأسره قدوة ونبراساً وهُدى:

".. والله، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه..".

أجل.. هنا سيمسح الحسين صداها.. ويتراءى له المشهد، فيُفجّر في نفسه بأسها، ونضالها، وتقاها..!!

ولسوف يسأل نفسه: ما هذا الأمر الذي رفض جده النبي ﷺ أن

يتخلّى عنه ولو أوتى الشمس والقمر وما بينهما؟؟
ويجيبه قلبه: إنه كلمة الله ودينه.

ويعود يسأل نفسه: وأين دين الله اليوم، ومَن الذى يحمل لواءه؟؟
ويجيبه الواقع: إن دين الله اليوم فى محنة، إنه يتحوّل إلى ملك
عضوض.. وإن الذى يحمل لواء اليوم طاغية عرييد اسمه، يزيد!!
يعود يسأل نفسه: وما المصير؟؟

ويُجيبه وعيه ورُشدُه: المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية، ودُنُو
ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنت وشادت تراباً فى تراب..!!
ألم يقل جدك الرسول عليه السلام:

"إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة".

فها هو ذا قد وُسِّدَ لغير أهله، بل لشر أهله".

ويعود سائلاً نفسه: وما واجبى الآن؟.

ويجيبه ضميره: المقاومة، الآن، وأبدًا.. حتى يفوز الحق، أو تهلك
دونه..!!

على هذا النحو لابد أن يكون "الحسين" قد أدار خواطره
وتفكيره..

وفى رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة فى
وعيه ووجدانه، وكانت وليدة إدراكه الشديد لحق الدين عليه
واستعداده للتضحية فى سبيله.

وليست نتيجةً لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كُتُبهم
ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد.

أجل.. ما كان "الحسين" ليدع دين الله ودنيا الناس ألعوبة في يدي يزيد..

بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية، ثم يضرب ضربته العادلة.

وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه؛ فلقد كان يهتدى إلى مسؤولياته بنور إيمانه ويصوت ضميره.. وليس بتحريض قوة خارجية. ولقد عرفنا رأيه القديم في صلح أخيه مع معاوية.. إذ كان يعارض هذا الصلح، معلناً أن آل أبي سفيان لا عهد لهم ولا أمان. فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية، فكيف يكون إذن والمستخلف اليوم يزيد..؟!

ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة، ورفضه البيعة ليزيد يُشكلان إعلاناً لمبدأ المقاومة.

فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع.. وهو لن يبايع أبداً.. وإذا ستكون المجابهة بينهما أمراً محتوماً.

ثم إن للحسين طبيعة جياشة ثائرة، يربطها بالحق ولأء وثيق وعجيب، وتستمد من فضائل الدين العالية، ومن تراث حسبه العريق زاداً لا يفنى من الصمود والمثابرة!!

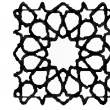
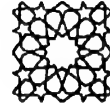
ولن يجد في كيانه ذرةً تصبر على رؤية يزيد بن معاوية يجلس حيث جلس من قبل - أبو بكر - وعمر - وعثمان - وعلى!! إن ذلك يعنى ضياع مقدّسات عزيزة وغالية..

وإذا كانت الطبول تدق في دمشق، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبي سفيان..

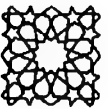
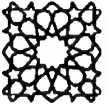
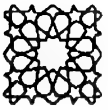
فلا بد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة..
ولا بد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان!!



الفصل الخامس



البطل يتقدم



تلك هي القضية تماما..
وهذه حقيقتها التي تجلّت أمام الحسين كفلق الصباح.. فهي
ليست لغزاً، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول..
ولا صفقة، ترتبط اهتماماتها بمغرم أو مغرم..
كما أنها ليست طموحاً شخصياً، يحتاج إلى موازنة بين فرص
النجاح واحتمالات الإخفاق.
إنها قضية الحق وحده..
حقّ دين، وحقّ أمة، وحقّ دولة، وحقّ مصير.. فإما أن ينتصر هذا
الحق، أو فليمت الأبرار دونه..
ومن لقيادة الأبرار في هذا المجال، كأبي عبد الله الحسين. خير
ابنٍ لخير آباء.. وأكرم وارثٍ لبيت التضحية والبذل والفداء...!
إن ملايين المسلمين في كل العصور والأزمان، يصلون عليه في
صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار.

أليس كل مسلم كان أو سيكون، يختتم صلاته قائلاً:

"التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله..

السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين..

أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله..

اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد..

وأليس الحسين من أولئك الآل؟

أليس هو درّتهم الفريدة والمجيدة..؟

إذن، فإن لهؤلاء الذين يُصلون عليه عبْر الزمان والأجيال حقاً

عظيماً سيقترضه تضحيات عظيمة!!

ومنى تكون التضحية، إذا لم تكن اليوم، ودين المسلمين يتحول

إلى "مزرعة أموية" .. وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث..

ومصايرهم الكبرى تُمسك بها أيدي وُصوليين جُباة، وجلادين طغاة..؟!

هكذا لم يكن للحسين بد من أن يقاوم، حتى لو لم يدعه من

العراق داع، ولم يأت من الكوفة كتاب.. كل ما صنّعه وفود الكوفة

وكتبها له. أنها عجّلَتْ خروجه.

وهنا، لابد أن ننفي عن تفكيرنا وهما ردّه كثيرون، هو أن

"الحسين" رضى الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبّرها.. أو

ضحية أنصار لم يُحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم..!

كلا، إن "الحسين" إنما ذهب شهيد إيمان قرّر مختاراً ومشتاقاً أن

يكون شهيداً وقربانه..!!

والآن ونحن نواجه الوقائع والأحداث، سنرى كم كان فى تصميمه ويطولته حكيماً، وكيف خطَّط لواجبه ومسئولياته فى رُشد، ونُهى وسَداد..

* * *

فعندما جاءتَه كُتِب أهل الكوفة تدعوه إلى القدوم عليهم لمبايعته، ولدفع العار الذى لحق الأمة باستخلاف يزيد، لم يُسارع بامتطاء راحلته.. بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثاً فطناً وأميناً يرى الموقف هناك على طبيعته، ثم يوافيه بالأنباء.. واختار للمهمة ابن عمه "مسلم بن عقيل بن أبى طالب" وحمله إلى الكوفة هذه الرسالة:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن على، إلى مَنْ يبلغه كتابى هذا، من أوليائه وشيعته بالكوفة.

سلام الله عليكم..

أما بعد، فقد أتنى كُتِبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم ورغبتكم فى قدومى إليكم.

وإنى باعثُ إليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهلى "مسلم بن عقيل" ليعلم لى كُنْه أمركم، ويكتب إليّ بما يتبين من جمعكم.. فإن يكُ أمركم على ما جاءتنى به كُتِبكم وأخبرتني رسلُكم؛ أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله تعالى..

ومضى "مسلم" إلى الكوفة.. ولم يكد يستقر بها حتى سارع الناس

إليه يبايعونه على السير تحت لواء "الحسين" مهما تكن التضحيات.
وسارع جواسيس يزيد إلى "النعمان بن بشير" وإلى الكوفة
وحاكمها يطلعون على ما يدور ويجرى.

وكان "النعمان" رضى الله عنه صحابياً جليلاً، فردّ جواسيس يزيد
خائبين، إذ قال لهم:

"إنى لا أقاتل إلا من يقاتلنى.. ولا أثب إلا على من يشب
على، ولا آخذ بالظنة أحداً.."

وأجابه أحدهم قائلاً: "هذا رأى المستضعفين" .. فزجره النعمان
قائلاً:

"لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله.. خير من أن أكون
من الجبارين فى معصيته"!!

وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد
يخبرونه أن "مسلم بن عقيل" استولى على أفئدة الناس، وأن "النعمان
بن بشير" لا يحرك ساكناً.

وفى دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه.. وكان أبرزهم ذلك الذى
يسمى "سرجون" ..

تُرى بم يشير مجوسى كسرجون..؟؟

أشار بعزل "النعمان بن بشير" وتولية عبد الله بن زياد وإلى البصرة،
والياً على الكوفة أيضاً.

ولم يكن عجباً أن يقع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات، ذلك
أن "مرجانة" أم بن زياد، كانت هى الأخرى جارية مجوسية..؟؟!!

وابن زياد هذا، من أخط وأشقى من حملت الأرض على ظهرها لا يفوق ولعه بالقتل وسفك الدماء، سوى ولعه بالقتل وسفك الدماء.

فى نفس الوقت، كان الحسين عليه السلام، قد أرسل مولاه "سليمان" إلى البصرة حاملاً هذه الرسالة إلى نفر من زعمائها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن على.. إلى مالك بن مسمع، والأحنف بن قيس، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، والمنذر بن الجارود..

سلام الله عليكم..

أما بعد؛ فإننى أدعوكم إلى إحياء معالم الحق، وإماتة البدعة والباطل؛ فإن تجيبوا تهتدوا سُبُل الرشاد..

إن رسالة "الحسين" إلى أهل البصرة، ترينا كيف كان يعرف مسئوليته ويمضى معها.. فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة.. ومع هذا فهو يكتب إليهم ويُعدّهم للمجابهة المحتومة - ذلك أنه قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته، كان قراره هذا آتياً من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه.

* * *

لم يكد مبعوثه "سليمان" يصل البصرة، ويسلم رسالته لزعمائها، حتى سارع أحدهم وهو المنذر بن الجارود إلى ابن زياد حيث أفضى له سرّها وأطلعه عليها.. وألقى ابن زياد القبض على "رسول الحسين" وفى وحشية تليق به، قام بقتله وصلبه.. ثم تهيأ للسفر إلى الكوفة، ليباشر مهمته المجرمة هناك!!

وقبل رحيله، دعا أهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال:
 "يا أهل البصرة.. إن أمير المؤمنين يزيد!! قد ولّاني مع البصرة
 الكوفة، وإنني سائر إليها، وقد خلّفت عليكم أخى عثمان بن زياد..
 فأياكم والخلاف والإرجاف.. فوالله لئن بلغني عن أحد أنه خالف أو
 أرجف، فلاقتلنه ووليه، ولّاخذن الأدنى بالأقصى.. والبرىء بالمذنب،
 حتى تستقيموا أنا ابن زياد.. وقد أعذّر من أنذر"!!

هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديث الطاغية.. على أن التجربة
 تعلمنا أنه ليس هناك أجبن من الطغاة.. وأن ما يتظاهرون به من بأسٍ
 شرسي وشجاعةٍ زائفة، إنما يستمدونها مما يمسكون بأيديهم من
 سلطان..!!

فابن زياد هكذا، بكل طغيانه، وقسوته، وإجرامه، يخاف أن يدخل
 الكوفة سافراً منظوراً، فيدخلها متنكراً، ومُخْفِياً سِحتته ووجهه وراء
 لثام وقناع..!

ومن المفارقات الباسمة، أن أهل الكوفة الذين كانوا ينتظرون
 مقدم "الحسين" على شوق، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد، حتى
 حسبوها موكب "الحسين" فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين:
 "مَرْحَباً بابن رسول الله ﷺ .. قَدِمْتَ خَيْرَ مَقْدَم"!!

ولئن كانت هذه الحفاوة بالحسين قد ملأت نفس ابن زياد مرارة
 وحقدًا، إلا أنها ألقت على قلبه الجبان كثيراً من الأمن، إذ اطمأن
 أنهم لم يعرفوه، وبالتالي لن يصلوا إليه بسوء.

وحين بلغ دار الإمارة، واحتذى بشرطتها وحرسها، راح ينصب
 شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه "مسلم بن عقيّل" الذي كان

يمارس نشاطه الجليل في همة موفقة وناجحة.

* * *

كان عزل "النعمان بن بشير" عن الكوفة، وتولية ابن زياد مكانه نذيراً رهيباً لمسلم بن عقيل.. فبعد أن كان يجتمع بالناس في غير تحرج ولا تخوف، راح يُغيّر مقره، فيتنقل إلى دار أخرى، ويحيط نشاطه بكتمان كبير.

كانت الدار الجديدة التي انتقل إليها هي دار "هانئ بن عروة" من صفوة أهل الكوفة وأشرافهم.

وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفوتها وزعمائها، ومن بينهم "شريك بن الأعور" .. وكان "شريك" شيعياً يكتُم إيمانه وولاءه، كذلك كان صديقاً لـ "هانئ بن عروة" الذي يتخفى "مسلم بن عقيل" في داره..

ورغب "هانئ" إلى صديقه "شريك" أن ينزل عليه ضيفاً في دراه فقبل دعوته، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثّه على المثابرة.

وهنا نلتقى بصورة من عظمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم في النضال والقتال ذلك أن "شريك بن الأعور" مرض وخف ابن زياد لعيادته حيث هو في دار هانئ..

ورآها "شريك" نفسه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه. فاتفق مع "مسلم بن عقيل" أن يفاجئ ابن زياد عندما يجيء إليه، ويضربه بسيفه ضربة تُريح منه البلاد والعباد.

ولكن ابن زياد جاء، وجلس، وطالت جلسته، ثم غادر الدار دون

أن يناله سوء..

وبُعِيد انصرافه عاتب "شريك" مُسَلِّماً" وسأله: لماذا لم تُنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله..؟ فأجابه "مسلم":

"لقد منعني من ذلك أمران: أولهما، كراهية هاني أن يُقتل في داره.. وثانيهما: أن رسول الله ﷺ نهانا عن الغيلة، وقال: لا يَفْتِكُ مؤمن"!!..

هذا هو الخلق الشريف الذي يُناضل له أهل البيت الكرام!!
أما "مسلم" فقد واصل أخذ البيعة سرّاً حتى بايعه ثمانية عشر ألفاً.

وآنئذ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين، أرسل "مسلم" إلى الإمام الحسين "يبشره بما تمّ، ويدعوه للقدوم..
وآنئذ أيضاً، كان ابن زياد قد جُنَّ جنونه لإخفاقه في القبض على "مسلم" وفشل شرطته في معرفة مكانه، هنالك لجأ إلى حيله الخبيثة، فاختار واحداً من مواليه، واسمه - معقل التميمي - وأعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يجوب خلال الكوفة، مُجرّداً من نفسه شخصاً غير شخصه.. زاعماً ومتظاهراً بأنه واحد من شيعة "الحسين" يريد أن يأخذ مكانه بين صفوف أنصاره، ويريد أن يُسهم بما معه من مال في شراء سلاح لأولئك الأنصار!!

وبعد طوال تطواف، وطول تعسُّس، اهتدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة، فقد تعرف إلى رجل صالح من أصحاب "مسلم" قاده أخيراً إلى مكانه ومقره..

وأُتقن الخبيث دوره حتى خُدِعوا به جميعاً، وأصبح أثيراً لديهم،

يزور "مسلمًا" كل يوم حيث يقضى معه النهار كله.. ثم يقضى الليل بأجمعه مع ابن زياد، ناقلًا إليه الأخبار والأسرار..

وحين تمكّن ابن زياد من قنصه الثمين، أرسل في طلب "هانئ" وفاجأه قائلاً: "إيه يا هانئ بن عروة، ما هذه الأمور التي تحاك في دارك لأمر المؤمنين (!!)"، جئت بمسلم بن عقيل وأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال، وظننت أن ذلك يخفى على.."

كانت المفاجأة أليمة الوقع على هانئ.. فرأى أن يُخادع ابن زياد بالإنكار ريثما يستعد لمجابهته التي أصبحت فوريئتها محتومة..

لكن ابن زياد أذهله بمفاجأته الثانية، فدعا جاسوسه - معقلا - الذى انتصب أمام "هانئ" كليل الشتاء طويلا باردا وسأله ابن زياد أتعرف هذا؟ وسقط في يد هانئ وأدرك كل شيء.. وسرعان ما سيطرت رجولته على الموقف فى لحظة، وصاح بابن زياد:

"أجل أعرفه.."

وإن "مسلمًا" فى دارى، وهو ضيفى، ولن أسلمه أبداً!!

وجن جنون الطاغية، فنادى جلاذيه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت!!

وتناوشه المجرمون، يكسرون أنفه، ويمزقون لحم وجهه، ويهشمون عظامه، وهو صابر مُحْتَسِب..!!

ولما شفى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه، أمرهم أن يخرجوا به إلى السوق ويضربوا عنقه..

وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى "مسلم بن عقيل" فجمع رجاله وأنصاره، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حصاراً رهيباً.

لماذا لم يضرب "مسلم" ضربته من فوره..؟

لماذا لم يقتحم القصر على ابن زياد، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلمين أضعافُ الحرس الذين يحرسون الطاغية؟؟

لماذا لم يستغل تلك الثورة العارمة التي كانت تشتعل في أنفس الناس تقمة وغضباً لمقتل "هاني بن عروة"؟؟..

هنا، ينجو ابن زياد مرة أخرى من قتل مُحَقِّق بسبب أناة "مسلم" وفضائله!!

فـ "مسلم" يعلم أن "الإمام الحسين" إنما أرسله ليأخذ له البيعة ولم يأذن له بقتال..

وهو حريص على أن يلتزم الحدود التي رسمها له ابن عمه وقائده! وهكذا قضى اليوم كله مكثفياً بالحصار الذي ضربه وأحكمه. بينما قضى ابن زياد ومن معه في القصر يومهم في نسج الشباك وإعمال الحيلة، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافها الممالئين ليزيد، والذين كانوا معه داخل القصر، على أن يُطلُّوا على المحاصرين ساعة الغروب، ويخبروهم أن جيش الشام في طريقه إلى الكوفة سيصلها غداً أو بعد غد.. وسيحيل أحياءها قتلى، ودورها تُراباً.. ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد، وأتقنوا عملية بث الرعب في القلوب، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تعالج الأمور فيما بعد بالتفاهم والمفاوضة..

وانصرف الثوار - بعضهم صرفه الفزع.. وبعضهم صرفه احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدماء..!!

وفي الصباح انبثت شرطة ابن زياد في طول الكوفة وعرضها باحثين

عن "مسلم بن عقيل" حتى عثروا عليه فى إحدى الدور، فقاومهم وحده بسيفه وعزمه، ولكن دون جدوى..

وحُمِلَ إلى الطاغية، حيث وقف أمامه صامتًا ورافضًا أن يُلقى عليه السلام.

وسأله ابن زياد: أترك ترجو الحياة والبقاء...؟؟

فأجابه "مسلم":

"إذا كنت تريد قتلى، فدعنى أوص إلى بعض الذين هنا من قومى.."

أجل.. لم تشغله حياته.. إنما تشغله حياة ابن عمه "الحسين" الذى أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن فى طريقه إلى الكوفة!!
كما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه، حيث أسهم بها فى شراء العتاد والسلاح..!!

وأجابه ابن زياد إلى طلبه، فأمر- عمر بن سعد - أن يستمع لوصيته. وأوصاه "مسلم" فقال:

"إن على الكوفة دينًا اقترضه، فإذا قتلت فبع سيفى ودرعى، وخُذ من غلّتى بالمدينة حتى تقضيه عنى.. وإنى قد أرسلت إلى "الحسين" أخبره أن الناس ينتظرونه، وأدعوه للقدوم، ولا أراه إلا مُقبلًا. فابعث إليه من يرده ويخبره أن أهل الكوفة لا عهد لهم.."

ثم أسلمه الطاغية لجلأديه، فضربوا عنقه.. ثم رموا رأسه الكريم من حالى إلى قارعة الطريق.. وأتبعوا الرأس الجسد..

ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم، فقد كانت الليلة ليلة العيد!

وفى الصباح صلى "ابن مرجانة" فى المسجد الجامع صلاة عيد الاضحى.. ثم أمر برأس "مسلم بن عقيل" ورأس "هانئ بن عروة" فغُرسا فى أسنة الرماح ثم أرسلها إلى الشام، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين..!!

* * *

فى الوقت الذى كان رأس "مسلم وهانئ" يقطعان الفيافى من عراق ابن زياد، إلى شام يزيد.. كان "الإمام الحسين" يقطع طريقه من مكة إلى الكوفة، دون أن يعلم بعد، ما وقع بها من أهوال!!.. وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضة عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليه عواقب الخروج.

فهذا "عبد الله بن عباس" رضى الله عنه يُجرى معه حواراً طويلاً يتوسل إليه خلاله كى يبقى حيث هو.

يقول له "ابن عباس":

"يا ابن عم.. إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق، فبيِّن ما أنت صانع؟".

فيجيبه "الحسين":

"إنى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين إن شاء الله تعالى".

ويعود "ابن عباس" ليقول له:

"إن كانوا قد دعوك إليهم بعد أن عزلوا أميرهم، ونفوا عدوهم، ووطأوا أكناف بلادهم، فسِرْ إليهم.. وإن لم يكونوا فعلموا، فإنهم إذن يدعونك لفتنة وقتال.. وإن أهل الكوفة لا

عهد لهم، وإني أخشى عليك الهلاك..
 أقم بهذا البلد حيث أنت.. وإذا كنت لابد خارجًا، فاذهب إلى
 اليمن، فإن به حصونًا وشعابًا، ولأبيك به شيعة..
 ويزداد "الحسين" تصميمًا ويقول:
 "يا ابن عم.. إني لأعلم أنك ناصح مُشفق ولكنى قد عزمت على
 المسير.."

وتضيق الأرض بابن عباس، وتحتدم أعصابه ويقول للحسين:
 "لولا أن يُزري الناس بي وبك، لشبَّثتُ يدي في رأسك فلا أدعك
 تذهب.."

ولكن إذا كنت لابد سائرًا، فلا تسر بأولادك ونسائك، فإن أخشى
 أن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتل عثمان..
 وهذا "عبد الله بن عمر" لا يعلم بسيرته إلا بعد خروجه، فيمتطى
 ظهر راحلته، ويقطع الطريق وراءه وثبًا، حتى يلحق به على بعد ثلاثة
 أيام من مكة.

ويسأله: أين تريد؟

فيجيبه: الكوفة، هذه كُتب أهلها وبيعتهم، وإني ذاهب إليهم.

فيقول له ابن عمر:

"إني محدثك حديثًا.."

إن جبريل أتى النبي ﷺ، فخيرَه بين الدنيا والآخرة، فاختر الآخرة
 ولم يرد الدنيا.. وإنك بُضعة من رسول الله ﷺ.. والله ما يليها أحد منكم
 أبدًا، وما صرفها الله عنكم، إلا للذى هو خير لكم.."

ولكن "الحسين" لا ينقص عزمه، فيضمه "ابن عمر" إلى صدره ويقبله ويقول وهو يبكي:

"أستودعك الله من قتيل"!!..

كذلك كان "أبو سعيد الخدري" صاحب رسول الله ﷺ قد حاول ثنيه عن عزمه قبل خروجه من مكة، وجلس يقول له:

"لقد سمعت أباك يقول وأنا معه بالكوفة: والله لقد ملأتهم وأبغضتهم، فما لهم ثباتٌ على أمر.. ولا صبرٌ على السيف.. ومن فاز بهم، فاز بالسهم الأخيب"!!..

كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته لم تلن قناه ولم توهن له عزما.

ذلك أن القضية التي خرج البطل حاملا لواءها، لم تكن قضية شخصية تتعلق بحق له في الخلافة.. أو ترجع إلى عداوة شخصية يُضمرها ليزيد.. كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التي يستوى فيها احتمال الربح والخسران..

كانت القضية أجل، وأسمى، وأعظم..

كانت قضية الإسلام ومصيره، والمسلمين ومصيرهم..

وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذي أنكره البعض بلسانه، وينكره الجميع بقلوبهم، فمعنى ذلك أن الإسلام قد كفَّ عن إنجاب الرجال!!..

معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم.

ومعناه أيضاً، أن مصير الإسلام والمسلمين معاً، قد أمسى معلقاً

بالقوة الباطشة، فمن غلب، ركب.. ولم يعد للقرآن، ولا للحقيقة سلطان..!!

هذه هي القضية في روع الحسين..
 وبهذا المنطق أصر على الخروج..
 ومعنى آخر نبيل، أفصح عنه في حوار مع ابن عباس حين كان يلح عليه أن يبقى في مكة، فقال له:
 "إنى أخاف أن تُستباح بسببى"!!
 إنه برفضه مبايعة يزيد، وتصميمه على مقاومته، يرى المجابهة أمراً محتوماً..

ولم يُرد لهذه المجابهة أن تقع في البلد الحرام، فهو على بينة من سفالة خصومه.. وهو يعلم أنهم لن يتورعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطروهم القتال لذلك..
 ثم إن أهل الكوفة قد دَعَوْه، ووَثَّقَتْ دعوتهم بكتاب ابن عمه "مسلم بن عقيل" فقد صار لزاماً عليه وفق اقتناعه بعدالة قضيته أن يُسارع إلى تلك الجبهة التي أعدت نفسها لمناصرتة والمقاومة معه.
 ولكن، ماذا عساه يصنع، حين يعلم أن ابن عمه قُتِل.. وأن الذين بايعوه قد لاذوا بالفرار..؟

لن يصنع شيئاً سوى المضى مع عزمته وعزمه.. ذلك أنه لم يخرج ليُحرز نصراً مضموناً.. بل خرج ليؤكد حق الإسلام في حماية نفسه من الضلال والإفك، وليُكفّر في توضيح مجيدة عن خطيئة الصمت التي اقترفها الناس طائعين، أو مكرهين..!!!
 وليكن بعد ذلك ما يكون!!

إن الذى يعنيه من ناحية الجوهر، هو أن يؤدى ما رآه واجباً مقدساً عليه نحو دينه ونحو الحق.

والذى يعنيه من ناحية الشكل، ألا تدور المعركة بينه وبين يزيد فى مكة فيكون سبباً فى استباحة حرمتها وقداستها.

"لأن أقتل فى أى مكان من الأرض، أحب إلى من أن أقتل هنا، فيُستباح البلد الحرام بسببى"!!..

وهكذا طاف بالبيت الحرام، مؤدياً له التحية التى لم يكن يدرى أنها تحية الوداع!!

ثم تصدّر القافلة التى انتظمت أهله المباركين من زوجات، وأخوات، وإخوة، وأبناء عم، وأبناء إخوة.. كما انتظمت نفرًا من أنصاره وصحبه..

ولقد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع؛ لأنهم - غالباً - تشبّثوا بالرحيل معه.. ولأنهم وفق التدبير الذى كان مرسومًا سيقيمون فى البيوت التى ستعدّ فى الكوفة، قريبين منه وتحت عينيه ورعايته.. ولأنه أخيراً - وربما كان هذا أهمّ دواعى اصطحابهم معه - خشى حين يشتبك مع يزيد فى قتال، أن ينتقم منه فى شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات، فيهاجم مكة، ويستبيحها بسببهم، الأمر الذى كان "الحسين" يخشاه دائماً ويتوقاه..!!

* * *

ومضى البطل إلى غايته..

وأخذت النذر تلقاه على طول طريقه.. ففى أول الطريق لقيه الفرزدق الشاعر قادمًا من الكوفة.

وسأله "الحسين": "كيف تركت الناس من وراءك؟"
 فأجابه الفرزدق: "تركتهم، قلوبهم معك.. وسيوفهم مع بنى أمية."
 إنه نذير من رجل له بالأموال فطنة وبصر، لكن البطل العظيم لا يزيد
 على أن يتلو الآية الكريمة:
 ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ﴾...!!

ويمضى في طريقه.. وبعد أيام يلقاه "عبد الله بن مطيع" قادمًا هو
 الآخر من العراق، فلا يكاد يرى "الحسين" حتى يتعلق بشيابه صارخًا
 وراجيًا أن يعود، قائلاً له:

"أناشدك الله ألا تذهب للكوفة، فوالله لئن أتيتها لتُقتلن."

فما يزيد على أن يتلوا الآية الكريمة:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾...!!

ويستأنف السير مع قدره وقدره..

وبعد مرحلة أخرى من الطريق يلقاه رجل من بنى اسد، قادم من
 الكوفة أيضًا، فيسأله "الإمام" عن أخبارهم.

فيجيبه الرجل: لقد قُتل "مسلم بن عقيل، وهاني بن عروة"...!!
 نبأ يهد الجبال..

ولكن، من هو بإيمانه أقوى من الجبال، ماذا تكون ردود فعل هذا
 النبأ الرهيب لديه..؟

أرسل بصره في الأفق البعيد، ثم قال:

"إنا لله، وإنا إليه راجعون. عند الله نحسب أنفسنا ولا خير في

العيش بعد هؤلاء"...!!

إن مصرع "مسلم وهاني" كان كافياً لصرف "الحسين" عن غايته، لو أنه كان في موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته، وجسارته من مساندة أهل الكوفة له.. وليس من إيمانه، واقتناعه، وضميره .

فمعنى قتل "مسلم وهاني" أن الجبهة كلها قد انهارت، وأن أهل الكوفة - على أحسن الظنون بهم - قد باتوا عاجزين عما كانوا قد جندوا أنفسهم له.

وهذا كاف لكي يُلَوَّى "الحسين" زمام قافلته ويعود.

لكن تصميمه الوثيق يقوده .. وقدره العظيم كان يناديه..!!

سار - رضى الله عنه - يقطع الصحارى المتلظية، مجتازاً فى مشقة وكبد، أغوارها ونُجودها.. مُعَانِياً لِفُحْهَا الضَّارِب كَرِيح السُّمُوم، حتى بلغ مكاناً يُدعى "بطن الرِّمَّة" فحط رحاله، وضرب خيامه ليستريح ومن معه..

ثم كتب لأهل الكوفة كتاباً يخبرهم أنه فى الطريق إليهم، وأعطى الكتاب واحداً من أصحابه هو: "قيس بن مسهر الصيداوى" وأمره أن يسبقه به إلى الكوفة.

ومضى "قيس" لسييله.. بيد أنه لم يكد يبلغ القادسية حتى لقيته قُوات ابن زياد، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة.

وهنا نرى مشهداً بطلاً، لرجل بطل!!

فقد أمره ابن زياد أن يُشرفَ على الناس من شُرقة قصره، ويلعن "الحسين" .. ويعلن على الملأ أنه - حاشاه ثم حاشاه - كذاب وابن كذاب!!

وتظاهر "قيس" بالطاعة، وصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن

مرجانة..

ثم ألقى على الجموع التي جمعوها وحشدوها نظرة وابتسامة ثم صاح:
"أيها الناس..

"إن الحسين بن علي" من خير خلق الله، فأجيبوه وانصروه.. وإن الكذاب بن الكذاب، هو عبيد بن زياد؛ فالعنوه والعنوا أباه"!!
هل تستطيع كل فصاحة البشر، أن تعلق على هذا الموقف بشيء أو إطراء، أو تمجيد...؟؟!!
كلاً..

فلنلق نظرة مُزدربة على ابن زياد؛ لنرى ما أنزل به موقف "قيس" العظيم من خزي وإذلال وسُعار..
لقد جُنَّ كالكلب المسعور، وراح يلعن ويرجُم شياطينه لأنهم أمهلوه حيًّا حتى أكمل عبارته القاصمة.
ثم أمرهم أن يلقوا به حيًّا من أعلى سور القصر، فقذف به، حيث اندقت عظامه وغربت حياته..!!^(١)
لم يعلم "الحسين" بمصير "قيس" بعد..
ولقد استأنف سيره ومسراه حتى انتهى إلى مكان يُدعى - زرود - وهناك أبصر فسطاطًا مضروبًا. فسأل عنه فعلم أنه لـ "زهير بن القين" فأرسل "الحسين" في طلبه، فتشاقل أول الأمر، ثم ذهب إلى لقائه ضَجْرًا..

^(١) هناك رواية تاريخية أخرى تقول: إن صاحب هذا الموقف، هو "عبد الله بن يونس" أخو "الحسين" من الرضاة.

وحين التقيا، أَسَرَ "الحسين" إليه حديثاً، لم يكد الرجل يسمعه حتى تهلّل وجهه، وامتلاً غبطة وبشراً...!!

ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط "الحسين" وقال لمن كان معه من أهله "مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّبِعَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّهُ آخِرُ الْعَهْدِ بَيْنَنَا". ثم التفت إلى زوجته وقال لها: "أما أنت، فالحقّي بأهلك، فإنّي لا أحب أن يصيبك بسببي سوء.."

وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنهم، مصطحبين معهم زوجته..

ترى ماذا قال له "الحسين" حين ناجاه..؟!

هل وعده بمنصب، أو مَغْنَم..؟؟

لو كان ذلك، ما سَرَّح زوجته، ولا قال للذين كانوا معه مُودِّعاً إياهم: "إنه آخر العهد بيننا.."

ثم بأيّ مَغْنَم يَعِدُهُ "الحسين" وقد جاءتْه الأنباء بمقتل رُسُلِهِ، وشراسة عدوه..؟؟

أغلب الظن أنه حدثه عن قضيته العادلة، ثم ختم حديثه معه قائلاً: تلك هي القضية، فقيم إبطاؤك عن الجنة..!!

وتابعت القافلة سيرها، كاسِبةً هذا النصير الجديد، ومنتظمة رجالاً آخرين كانوا ينضمون إليها خلال عبورها بقراهم وخيامهم عبر الطريق الطويل..

وبعد مسيرتهم من جديد، أبصروا فارساً يُشير النّقْعَ، ويطوى الأرض..

لقد كان رسول - عمر بن سعد - الذي أوصاه "مسلم بن عقيّل" قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث، وينصحه بالرجوع..

لم يبق في الأمر إذن شك ولا ريب..!!
ولم يدر في خاطر الحسين أدنى تردد، بل انتضى عزمه وواصل
سيره..

كل ما هنالك، أنه أعفى أولئك الذين تطوعوا لنصرته من رجال
القبائل التي مرّ بها خلال سفره..
لقد انضموا إليه على أمل النصر.. أما الآن فالأمل في
الاستشهاد وحده..!!
ومضى في صحبة أهله، وخاصته، والنصير الجديد والعظيم "زهير
بن القين" ..

* * *

كان ابن زياد قد فرض حول الكوفة حصاراً مُحكماً، فلا يخرج من
أهلها أحد، مخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة.
ولم يأذن لأحد من أهلها بالخروج إلا إذا كان ذاهباً للحج،
شريطة ألا يكون يحب "الحسين" أو "التشيّع له"!!
وفي نفس الوقت، أطلق من وراء مشارفها وحدودها البعيدة طلائع
وسراياه، آمراً إياها أن تتربص بقافلة "الإمام الحسين". فإذا التقت بها
إحداها احتجزتها حيث هي، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد.
وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق، التقى ركب
"الإمام" بإحدى تلك الطلائع.

كانت تضم ألف فارس، تحت إمرة "الحر بن يزيد التميمي".
ولم يكد "الحسين" يراهم قادمين نحوه، يتصبّبون عرقاً من وقدة
الحر وقد تبيّست شفاههم من الظمأ، حتى أمر فتيانه أن يستقبلوهم

بالماء، فشربوا حتى رَوَوْا، ثم جلسوا في ظلال خيولهم.. وأذن مؤذن لصلاة الظهر، فسأل "الحسين" الحر بن يزيد أتصلي بأصحابك وأصلي بأصحابي..؟

وأجابه الحر قائلا: "بل نصلي جميعاً بصلاتك"..

ومضى الوقت بعد الصلاة في حديث وتحاور.. ثم صلوا العصر حين جاء مواعده. واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال "الحسين" لهم: "إنى لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم. فإن أعطيتموني ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مصركم، وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم".

ولكن - الحر بن يزيد - أنبأ "الحسين" رضى الله عنه، أنه لا يدرى من الأمر شيئا، وأنه كلف من أمير الكوفة والبصرة - عبيد الله بن زياد - بمهمة محددة، هي انتظار ركب "الحسين" حين يجيء، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة..

ابن زياد بالكوفة..؟؟!!

يا لهوان الدنيا حين يمسك بمقاليدها السفلة، وتُهيضُ فيها أقدارُ الكرام..!!

قال الحسين: "الموت أدنى إليك مما تريد"!! ثم أمر أصحابه فحملوا متاعهم، وركبوا رواحهم، ثم تقدمهم في المسير منصرفاً عن الكوفة، مغيراً اتجاهه..

لكن "الحر بن يزيد" أمر فرسانه فقطعوا عليهم الطريق.

وصاح به الحسين: ماذا تريد..؟

قال الحر: أن تصحبني إلى ابن زياد.

قال الحسين: إذن والله لا أتبعك..

وأجابه الحرّ: إذن والله لا أدعك..

وصاح الحسين: إنها الحرب إذن..!!

وهنا لانت عريكة الحرّ بن يزيد فقال: إني والله لا أريد قتالك ولم

أومر به، وإني لأرجو أن يرزقني الله فيك العافية، ولا ابتلى بشيء من أمرك. ولقد أمرت إن أنا لقيتُك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد، فإن رأيت فاتخذ طريقاً لا تُدخلك الكوفة ولا تردك عنها حتى يأتينا رأى الأمير".

ومضى ركب "الإمام الحسين" يضرب في تلك الرقعة من الأرض، يتيامن، مرة، وبتياسر أخرى. وفرسان ابن زياد بقيادة الحرّ يزودون الركب عن البادية كلما همّ أن يُدلف إليها ويدفعونه تجاه الكوفة في رفق..

ولم يكد الركب يبلغ "نيتوى" تلك القرية التي قيل إنها كانت موطن النبي "يونس" عليه السلام، حتى تراءى لهم من النّقع المشار، راكب يغذّ السير ويطوى الرمال.. ولبثوا مكانهم ينتظرون، فإذا هو رسول ابن زياد للحرّ بن يزيد يحمل إليه كتاباً يقول فيه: "... أما بعد، فاشدد على "الحسين" في المكان الذي يوافيك عنده كتابي.. ولا تُنزله إلا بالعراء، في غير حصن وعلى غير ماء.. وقد أمرتُ رسولي ألا يفارقك حتى تأتيني بإنقاذ أمري، والسلام"!!

وتلا - الحر - الكتاب ثم ناوله "الحسين" فتلاه.. وأراد الحسين أن يستأنف سيره متجهاً صوب مسيل ماء، فمنعه - الحرّ - الذي كانت

تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد.. غير "الحسين"
اتجاهه، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه.

ولكن إلى أين..؟

لقد خشي الحر أن تُفَلت الفرصة منه، فتصدى للركب السائر
وأصرَّ على النزول حيث انتهت خطواته..

ونزل الركب من فوق رواحله.

وألقى الحسين بصره على الفضاء الموحش حوله..

ثم سأل: ما اسم هذا المكان..؟

قالوا: اسمه كَرْبَلَاء..

فاختفى تفاؤله وراء إحساسٍ بالجزع، وتذكر ذلك اليوم الذي
تحدثنا عنه من قبل.. يوم كان "الإمام علي" في طريقه إلى "صفين"
فوقف على نفس المكان، وقال:

"هنا، محط رحالهم، ومُهرق دمائهم.."

تذكر "الحسين" المشهد كله، فقد كان يومئذ مع أبيه.

وذاب الوجود من حوله في لحظات تأملٍ حارة، صاهرة..

كَرْبَلَاء..؟؟!!

ها هي ذى بين نبوءة الأُمس، وواقع اليوم، ومصير الغد!!

أى سرٍ للقدر، ينشره ويطويه.. يظهره ويخفيه..؟!

وأية حكمة إلهية، تقود حياتنا بين مطالعها ومغاريها مُذَعِنَةً لِقَدَرِها

الحكيم، وتقديرها العليم..!!

لقد راح البطل يستعيد بخواطره ذلك اليوم، وتلك الواقعة، وتلك

النبوءة..!!

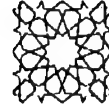
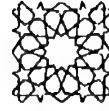
وراح يهز رأسه المضىء فى حركة متأملّة، كمن أدرك الحكمة
وطالع المصير..

وارتسمت أمام مخاطره بحروف كبار آية القرآن العظيم:
﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
مَضَاجِعِهِمْ. وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ. وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾..

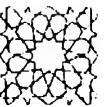
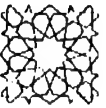
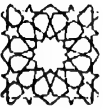
ونفض فى قوة وطمأنينة، وراح يشارك صحبه فى شدّ الخيام، فقد
آن للعقيلات والأخوات أن يسترحن، بعد ما أضناهن لغوب السفر،
ومشقة الطريق..

وراح وهو يعمل، يردد فى حبور وتهلّل آية الله فى كتابه:
﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾...!!





المأساة والعظيمة



وكان اليوم، غرة المحرم..
 والعام، الواحد والستين للهجرة..
 والمكان، كربلاء.. على مقربة من نهر الفرات..
 وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم.. يوم الواقعة الرهيبة،
 والمهيبه.. يوم الآلام، والمجد.. يوم الفاجعة، والبطولة.. يوم المأساة،
 والعظمة..
 قبل أن نبلغ هذا اليوم، علينا أن نتابع الأحداث التي سبقتة،
 وكانت جزءاً من صميمه.
 إن ابن زياد في الكوفة يعمل ليل نهار في إعداد ضربته الآثمة التي
 تلهت وراءها روحه المظلمة المسعورة!!
 وها هو ذاك، يختار قواده للمعركة، ويحشد المقاتلين..
 وحين يرى الناس يهربون من الانضمام لجيشه، يلجأ إلى طريقته في
 معالجة العصيان، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره، ثم يأتي بأحد
 المضربين عن الاشتراك في جيشه فيأمر بضرب عنقه، ثم يلقي برأسه
 ليتدرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد، فيقبلون على
 طاعته كارهين ومكرهين!!

وتذكر ابن زياد أن لديه جيشاً مجهّزاً، قوامه أربعة آلاف فارس، كان قد أعدّه تحت قيادة - عمر بن سعد - لمجابهة ثورة الدّيلم في أرض همدان.

كما كان قد عبّن - عمر - هذا والياً على الرّى.. فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء.

واعتذر عمر بن سعد، فراراً من أن تتلوّث نفسه ويده بجريمة لا يطيقها ضمير به مُسَكَّة من رشاد...!!

لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التي كان يطمح إليها ويعزله عن الجيش كله، فضعت مقاومة ابن سعد وغاب رُشده، وقبّل القيام بالمهمة البشعة، وسار بجيشه إلى كربلاء..

وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية، مسخّ شائه الخلق والخلق، اسمه شمر بن ذى الجون.

رجل مدخول الإسلام، انشقت عنه الأرض بغتة في الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصبوا الإمام عليّاً العداء.. فأدلى معهم بدلوّه، عاملاً لحساب نفسه الخبيثة، أو لحساب قوة خفية شريرة.

ومن تلك الأيام، وهو يكيّد للإسلام، ويُخرّب في صفوفه متخفياً وراء ذلك القناع المشبوه - قناع انتمائه للخوارج وتسله بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأغراض القوى التي يعمل لحسابها...!!

ولقد نفث في روع ابن زياد أن هذه فرصة عمره، إذا استطاع أن يجهز على "الإمام الحسين" ويقدم رأسه هدية لسيده يزيد...!!

نحن الآن في اليوم الثاني من المحرم.. وقد وافى كربلاء - عمر بن سعد - في جيشه المكون من أربعة آلاف فارس، كما ذكرنا

من قبل.

ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر "الإمام الحسين" الذى لا يزيد على اثنين وسبعين من أهله وأنصاره وابتدأ عمر بن سعد مهمته باختيار أحد رجاله واسمه قره بن سفيان الحنظلى، آمراً إياه أن يذهب إلى "الحسين" رضى الله عنه، فيسأله: لماذا جاء؟؟ وأجابه "البطل":

"إن أهل هذا المصر - يعنى الكوفة - كتبوا إلى يذكرون أنهم لا إمام لهم، ويسألوننى القدوم عليهم، فجئت إليهم.. وفى الطريق علمت نكوصهم، فأردت الرجوع، فمنعنى الحر بن يزيد، وسار بى إلى هذا المكان.."

وفرح عمر بن سعد، بهذه الإجابة التى أثلجت صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمى ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يطوق عنقه بأوزاره الثقال..!!

فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة، الذى أجابه على الفور بكتاب يقول فيه: "قد بلغنى كتابك، فاعرض على الحسين البيعة ليزيد، فإذا بايع ومن معه فأخبرنى وسيأتيك رأى..!"

وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على "الإمام الحسين" فكان جوابه: "لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبداً. وإن يكن الموت فمرحباً به..!!" ويرسل إلى أميره برّد "الحسين" فيكتب ابن زياد إليه: "امنع الحسين وأصحابه الماء، وحل بينهم وبينه حتى لا يذقوا منه حسوة، كما فعلوا بالتقى" عثمان بن عفان "رضى الله عنه..!!"

يا للفجار حين يتوقّحون..!!

تُرى هل سأل ابن زياد نفسه: أين كان يوم مُنِعَ "عثمان" الماء..؟؟
 وأين كان "الحسن والحسين وأبوهما الإمام"؟؟!
 أما هو، فكان جيفةً تنتقل في مراتع الإثم..
 وأما "الإمام" .. ومعدرة إلى الله عن هذه المقابلة التي نلجأ إليها
 مضطرين..

نقول: أمّا "الإمام" فقد كان يحمل قربة الماء على كاهله، ويخوض
 بها بين الثوار مقتحمًا صفوفهم، متحديًا حصارهم. يذودهم ويذودونه،
 ويدفعهم ويدفعونه، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه وحتى أنفذ الماء
 إلى الخليفة الظمآن!!

أما "الحسين وأخوه الحسن" فقد كانا هناك بأمر من أبيهما،
 يحرسان الخليفة ويذودان عنه عوادي الثوار.
 ولقد جرحا، وسال منهما الدم.. ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد؛
 فإنهما لم ينجوا بعد استشهاد "عثمان" رضى الله عنه من لوم أبيهما
 الشديد، بل ولطمهما بيديه، وهو يصرخ فيهما:
 "لماذا لم تموتا دونه"؟؟!

والآن، يزعم هذا الغزُّ الكذوب أنه يشار لعثمان، ولا يتورع عن
 اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرد بها وحشية وحرمان أبناء الرسول في تلك
 الأرض القائضة من شربة ماء...!!

* * *

وعاد الحوار بين "الإمام الحسين" وعمر بن سعد، فاستمسك
 "الحسين" بموقفه في رفض مبايعة يزيد.
 يقول "عقبة بن سميان" وهو أحد اثنين من أصحاب "الحسين"

خلصا من المعركة:

"صحبتُ" الحسين "من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق.. وسمعتُ جميع أحاديثه حتى يوم مقتله..

فوالله ما زاد على أن قال لهم: دعوني أرجع إلى البلد الذي أقبلت منه، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس.. فلم يفعلوا!!

هو إذن لم يعرض كما تزعم بعض الروايات الدخيلة أن يذهبوا به إلى يزيد فيضع يده في يده..

هذا تحريف واضح.. وإلا فقيم إذن كان امتناعه عن أن يقول بلسانه: بايعتُ يزيد، فينقُص جيش ابن زياد، وينتهي كل شيء..؟! لقد رفض الذهاب إلى الكوفة للقاء ابن زياد.. ثم رفض طلب ابن زياد، بأن يُبايع يزيد..

وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد، يرفض الإذعان لعصابة البغي والإثم في عزّة المتقين، وإباء الأكرمين..!!

وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذى الجون، فأشار عليه أن يقسو على - عمر بن سعد - في خطابته، ويأمره أن يجيء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة، فإن أبوا، قاتلهم حتى الموت..

ويلمح شمر، الممتلي بقذارة النفس وخبث الطوية.. يلمح في ذلك الحوار الدائر بين "الحسين" وعمر بن سعد بادرة قد تُفضي إلى مهادنة أو تفاهم - الأمر الذي لا يُشبع نَهْمَه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذين يعمل لهما منذ زعم الإسلام وأدعاه..!!

هناك هداه تفكيره الخبيث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال، ليتولى إضرام النار، إذا هي لم تُضرم نفسها وليصل بالمعركة بعد شُبوبها إلى الغرض الذي يريد..!!

وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد، ويبقى هناك عيناً لابن زياد ورقبياً، ومقاتلاً أيضاً.. واشترك مع أميره الطاغية في صياغة كتابه إلى ابن سعد، ثم هَرُول به إلى كربلاء..

"من عبد الله بن زياد أمير الكوفة والبصرة، إلى عمر بن سعد، فإنني لم أبعثك إلى "الحسين" لتكف عنه، ولا لتكون له عندي شفيعاً.

ادع "الحسين" إلى ما أمرتك، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين، فابعث بهم إلى. وإن أبوا، فازحف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم.

وبعد أن يُقتل "الحسين" أوطئ الخيل صدره وظهره.. فإن مضيت لأمرنا، جزيلاك جزاء السامع المطيع.. وإن أبيت فاعتزل جندنا.. وخَلَّ بين شمر بن ذى الجون والعسكر والسلام"!!

لم يكذ عمر بن سعد، يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذى الجون، فقال له:

"لقد أفسدت علينا أمراً كنا نرجو صلاحه.. والله لن يستسلم الحسين أبداً.."

فأجابه شمر: "امض لأمر أميرك وقاتل، أو فخل بيني وبين الجند.."

ومرة أخرى، غلب ابن سعد على دينه، واستسلم لأطماعه وهوادة،
 فرضى أن يبقى قائداً لحملة رجيمة، وجيش ظلوم!!
 وضحت النوايا إذن، أمام "الحسين"..
 إنهم يريدون إذلاله، أو يريدون حياته..
 أما المذلة؛ فالممات دونها!!
 وأما حياته، فليس هو أول من يجود بها في سبيل الحق من آل بيته
 العظيم، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم..
 الصعب في الأمر، أنهم لا يريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء، بل ولا
 قتال الآدميين!!
 إنهم لا يقنعون بمواجهته في أربعة آلاف فارس. بينما كل الذين
 معه من أهل وصحب، اثنان وسبعون لا غير..
 أجل.. إنهم لا يقنعون بتفوقهم العددي الساحق، فيحولون في
 صغار ولؤم، بينه وبين الماء، وهم يرون من وراءه في الخيام من
 سيدات، وأطفال، ومرضى!!
 لقد حاصروا الطريق إلى الشريعة بخمسمائة فارس.. وجفت القرب
 التي كان أخوه "العباس بن علي" قد ملأها من قبل عنوة، وقبل أن
 يضري حولها الحصار.
 ولقد يصبر "الحسين" ويصبر رجاله على الظم إلى حين، ولكن
 الأطفال والنسوة الذين لم يعد يُطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة
 الظم القاتل!! ماذا يصنع البطل لهم..؟!
 ترى هل أسف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن؟
 إن المؤمنين لا يأسفون على خطر، ولا يجزعون من قدر..

ولعلّه قد أسف لشيء واحد، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه "عبد الله بن عباس" ألاّ يصحب معه الحرائر والأبناء. ومع هذا فـ"الله الأمر من قبل ومن بعد!!

ولسوف يصبر على واجبه، ويُعانق مصيره بما عُرف عن بيته الكريم من رضا وثبات وولاء..

هكذا وقف ابن الرسول الأكرم.. وقف ابن "علي" البطل، و"فاطمة" الزهراء الموقف اللائق به، والمقدور له.. كان يستطيع أن يُخادعهم، والحرب خُدعة..

بل كان من حقه لو شاء أن يبايع بلسانه، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم، خلى البيعة وألقى بها إلى التراب، وله من دينه في مثل ذلك رُخصة سجلها القرآن في بعض آياته فقال:

﴿.. إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

ولكنه سليل بيت، ليس من طرازه سواه. وابن رجال لا يركبون الرّخص، بل يعانقون العزائم!!..

إن عاقبة المعركة لواضحة مقروءة.. فاثنتان وسبعون، لن يهزموا بل يُفْلِتُوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القلّة الصامدة أبشع حصار.. إنه لا أمل في النصر.

ولكن، أيّ نصر هذا الذي لا أمل فيه..؟ النصر العسكري في معركة غير متكافئة..؟؟

ليكن ذلك، فأين النصر الآخر، الأعظم، والأكرم، والأبقى..؟ النصر الذي يتحقق ويتمثل في بذل الحياة من أجل الواجب.. وفي إعطاء القدوة بروعة الثبات.. وفي إضاعة ضمير الحياة

بجلال التضحية..؟!!

هذا النصر، هل فقد "الحسين" الأمل فيه؟؟ لا.. بل لقد تجسّدت فيه كل آماله وأمال الذين معه، ومن ثم تشبّث وتشبّثوا به فى وله عظيم، وراح يقاتل ويقاتلون فى سبيله على نحوٍ يجلّ عن النظر..!!
وإننا لنظلم يوم كربلاء ظلماً كبيراً، حين نظنه مأساة لا غير.. وفاجعة لا أكثر.. ونتخذة مناسبة لاجترار الأحزان والآلام..

لا.. ثم لا، يا رجال!!

إنه مأساة وفاجعة إذا نظرنا إلى الشكل الخارجى للمعركة، فرأينا السّفلة الأدعياء ينتصرون.. ورأينا الوحشية المجرمة تفتك بأبناء الرسول ﷺ.

لكنّ يوم كربلاء ليس مأساة وفاجعة، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير، فرأينا عظمة الثبات، وروعة البطولة، وعزة الإيمان، وجلال التضحية، فى مهرجان للحق، هيهات أن يكون له نظير..!!

وستكون لنا إن شاء الله وقفة مع هذا المعنى الجليل الخالد فى الفصل القادم من الكتاب.

أما الآن، فإن علينا أن نسارع إلى مكان المعركة الأليمة والعظيمة؛ فإن ساعاتها الحاسمة تقترب..!!

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم، وقد ولىّ نهاره ودلّف ليل جديد!!

ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب..

ورأى الحسين تحرّكاتهم، وتذكّر واجباً لا بد من أدائه قبل أن يبدأ

القتال.

هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد - طالبا إرجاء القتال إلى غد.. وأجابه ابن سعد إلى ما طلب.. ولعلّه ظن أن وراء هذه الرغبة فى الإرجاء عزمًا على طلب التسليم وعلى بيعة يزيد!!
 ترى، لماذا طلب "البطل" إرجاء القتال..؟؟
 هل ليُدبر خواطره من جديد حول موقعه؟
 هل اقترب اليأس من عزمه، فأراد أن يفكر مع نفسه فى البحث عن مخرج يُوقِّيه وأصحابه ما ينتظرهم من هول..؟
 كلا.. لم يكن لشيء كهذا أى وجود فى رُوع البطل، ولا فى تفكيره.

فهو قد وطَّن نفسه على الموت من أولى ساعات المؤامرة التى بدأت مع طلائع جيش ابن زياد..
 وهو لا يعرف خيارًا، بين أمرين، ثانيهما خذلان الحق وبيعة يزيد!!
 إن أمامه طريقًا واحدًا، ليس لمثله أن يسلك فى هذه القضية سواء ذلكم هو سبيل التضحية بالحياة، ولو أمكن؛ فبألف حياة..!!
 إنما طلب إرجاء القتال إلى الغد؛ لأنه عظيم جدّ عظيم.. ليس لعظمة نفسه منتهى، وليس لنُبُل روحه حدود!!
 انظروا..

عندما استبان له نتيجة المعركة. أراد أن يدفع حياته وحدها زُلْفى لها وقربانًا..!!
 لم يشأ أن يدفع لسيوف البغى حياة أنصاره الخمسين، ومعهم الأشبال والرجال من أهله وأبنائه، بعد أن تغير الموقف بالنسبة لهم..

لقد خرجوا معه على حساب أن الكوفة في انتظارهم، لبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة، يدُحْضون بها ضلال حاكم الشام، ويدرأون بها عن الإسلام خُبْثَ بنى أمية..

لكنهم فوجئوا بالكوفة تنتظرهم بوجه آخر كالحِج وعَبوس..
فرُسُلُ "الحسين" صُرِعُوا واستشهدوا..

والألوف التي أعطت بيعتها لمسلم بن عقيل، تبددت واختفت كالجرذان..!!

وبدلاً من أن يجد البطل في استقباله كتاب الحق من شيعته وأنصاره، وجد عصابات البغى تنتظره بالغدر والمنايا..!!
إذن، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أهل وأنصار..
وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له، ولما وطُن عليه إرادته، وعزمه وضميره.

وهكذا طلب إرجاء القتال، ليجعل أهله وأصحابه في حلٍّ من كل التزاماتهم تجّاهه..!!

وهكذا جمعهم في الليل، وقال لهم بعد أن حمِدَ الله وأثنى عليه:
- .. أما بعد، فإنني لا أعرف أصحاباً خيراً من أصحابي.. ولا أهل بيت أبرّ، وأوصل من أهل بيتي.. فجزاكم الله خيراً؛ فقد بررْتُم وأَعَنْتُم..

وإنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيري.. وإن يومى معهم غد..!!
وإنى قد أذنت لكم جميعاً، فانطلقوا في غير حرج. ليس عليكم منى ذمام..

هذا هو الليل قد غشيكم، فانطلقوا في سواده قبل أن يطلع النهار،
وانجوا بأنفسكم..

من لمثل هذا الموقف المعجز، مثل ابن "علي" وحفيد
"محمد ﷺ"؟؟!

من، يا رجال..!!؟؟

وهو لم يقلها لأهله وصحبه استدراراً لعطفهم؛ فماذا يُغنى عطفهم
في هذا المقام؟؟

إنما كان يعنى تماماً كل كلمة قالها.. كان يعنى تماماً ألاَّ يُحملهم
مسئولية الموقف الذي اختاره، والهول الذي قرر أن يواجهه في
استبسال..!!

تُرى، هل يتقبل الأهل والأَنْصار رأيه هذا، وتوجيهه؟ كلا..
ولماذا..؟؟

لأن العظمة، ولأن البطولة كانتا في ذلك اليوم على موعدٍ مع
هؤلاء الأبرار جميعاً فتیاناً وكهولاً، لتحقيقاً بهم أروع مشاهدهما،
وأسمى أمجادهما..!!

من أجل ذلك، لم يكد البطل يفرغ من كلماته، حتى تحولوا
جميعاً إلى أسود تزار بالكلمات، وتشرق بالدموع!!
صاح أخوه لأبيه "العباس بن علي" :

"معاذ الله والشهر الحرام.. وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟؟

نقول: تركنا سيدنا وابن سيدنا غرضاً للنبال ودريئةً للرماح، وحرزاً

للسباع.. وفررنا عنه رغبة في الحياة؟؟!!

معاذ الله.. معاذ الله.. بل نحيا بحياتك.. ونموت معك"!!..

وصاح بمثل ذلك "بنو عقيل" و "بنو جعفر" وتقدم ابنه "علي بن

الحسين" - فتى لم يتجاوز سنه التاسعة عشر..!!

وسأل أباه:

"ألسنا على الحق يا أباه؟؟"

قال الحسين:

"بلى، والذي أنفسنا بيده.."

فصاح فتاه العظيم:

"إذن، والله لا نبألى!!.."

ومن أصحابه وأنصاره، قام "زهير بن القَيْن" يَزأُرُ وينادى:

"والله، لوددتُ أن أقتلَ ثم أُبعث.. ثم أقتلَ ثم أُبعث.."

هكذا ألف مرة، أكون فيها رِدْءًا عن حياتك وحياة هؤلاء

الفتيان من آل بيتك!!.."

وتلاه "مسلم بن عَوْسَجَة الأسدى":

"أنحنُ نتخلَّى عنك، ولم نَعْذِرْ إلى الله فى أداءِ حقك؟؟"

أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رُمحى وأضربهم

بسيفى ما ثبت قائمُه بيدي..!!

ولو لم يكن لى سلاح، لقدفُتْهم بالحجارة دونك حتى أموت

معك!!

وقام آخر.. وآخر.. وآخر..

هَبُوا جميعاً يُعطون أمجد يبعة فى تاريخ التضحية والفداء، يبعة

على موت مُحقق.. فليس هناك لما دون الموت أدنى احتمال!

ألم أقل لكم: إن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلك اليوم

مهرجاناً وعيداً...؟؟!!

لقد ارتفع الأبطال جميعاً إلى مستوى الموقف المجيد، الذي سيجعلون منه درساً لأجيال الدنيا كلها في الولاء الباهر للحق، وفي التضحية الشاهقة من أجله.. وهامهم أولاء، يعودون لمضاربهم وخيامهم.. يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهاال ويشحذ سيوفهم، ويرى سهامهم، وصقل رماحهم!!..

ومن طريف ما حدث في ليلتهم تلك، أن "نافع بن هلال البجلي" رضى الله عنه وعنهم أجمعين، قضى شطر ليله في كتابه اسمه على سهام نبله، إمعاناً في طلب المثوبة والأجر.. وإمعاناً في السخرية من الخطر وإمعاناً في الترحيب بالموت!!

وطلع الصباح.. وأقبل اليوم المشهود.. العاشر من المحرم!!
بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر.. أمّ فيها أهله وصحبه.
وطلعت الشمس على سبعين، أو اثنين وسبعين بطلا في جانب.. وأربعة آلاف ذئب في الجانب الآخر..

ووقف "الحسين" يعبئ رجاله.. فجعل "زهير بن القين" على الميمنة.. و"حبيب بن مظهر" على الميسرة.. وأعطى الراية أخاه "العباس بن علي".. وتقدم شباب آل البيت، ليأخذوا مكانهم في الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين:

"معاذ الله أن تموتوا ونحن أحياء، نشهد مصارعكم. بل نحن أولاء،

ثم تجيئون على الأثر"!!..

وهكذا وقفوا في الصف الثاني وراء القائد والأنصار. وفي الجانب الآخر وقف - عمر بن سعد - يعبئ جيشه، وينظم ميمنته وميسرته.

يا ويحكمهم.. ألا يَخجلون؟؟!! أربعة آلاف، لاثنتين وسبعين.؟؟!!

وفى سبيل ماذا..؟؟

فى سبيل باطل يروونه رأى العين، وفى سبيل أكذوبة صغيرة اسمها -

يزيد - وجريمة منكرة، اسمها - ابن زياد .؟!

ومن عجب أنهم كما يحدثنا التاريخ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد

أن صلى بهم قائدهم صلاة الصبح..!! أصبح أنهم صلوا، وقرأوا فى

آخر صلاتهم:

"اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد..؟!"

إذن ما بالهم يفتنون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الآثمة آل

محمد..؟! لكم كان "نافع بن هلال البجلي" صادقاً وهو يقول لابن ذى

الجون الشقى:

"والله لو كنت من المسلمين؛ لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا..

فالحمد لله الذى جعل مناينا على أيدى شرار خلقه"!!..

أجل، الحمد لله.. فتلك مزية أذخرها القدر للحسين وأصحابه -

أن يجيء مصرعهم المقدر على أيدى شرار لا يُقيم الله لهم وزناً فى

الدنيا ولا فى الآخرة..

فلكم يشق على الأنفس المؤمنة أن تجيء مناياها على أيدى قوم

خيار!!

أتذكرون كلمات أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" رضى الله عنه

عندما أفاق من غشية الطعنات الغادرة التى وجهها إليه وهو يصلى، أبو

لؤلؤة المجوسى..؟

لقد تهلل وجه "عمر" حين عرف هويّة قاتله.. وحمد الله كثيراً، إذ لم تجئه الضربة من برّ تقى.. وجاءت من ذلك المجوسى الزنيم..!!
ومن الحظوظ الوافية للحسين وأصحابه، أن خصومهم فى تلك المعركة كانوا أشراراً.. أشراراً من الرأس إلى القاع.. ولم يكن فيهم خير واحد، ولا برّ واحد يمكن أن يُشكل وجوده بينهم أمانة احتجاج أو علامة استفهام..!!

* * *

أوشك القتال أن يبدأ..
ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه، وقع حادث عجيب..
أتذكرون "الحُر بن يزيد التميمي" قائد الطليعة التى أرسلها ابن زياد من الكوفة.. والذى التقى بركب "الحسين" واضطره للنزول فى كربلاء..؟؟

إنه لم يكذب يرى القتال على وشك البدء، حتى أحس فداحة الجريمة التى ستلوثه، وبشاعة الوزر الذى سيحمله، وظلام المصير الذى سيكون له عند الله، فخرج بجواده من صفوف فرسانه، واقترب من قائد الجيش - عمر بن سعد - وصاح به:

- أمقاتل أنت ذلك الرجل..؟

قال ابن سعد:

- نعم والله، قتالاً أيسره أن تبتر الأيدي، وتطوّح الرؤوس!!

قال الحرّ:

- أولستُم تاركيه يرجع إلى حيث أتى، أو يضرب كما قال فى

الأرض العريضة..؟

قال ابن سعد:

- لو كان الأمر بيدي لفعلت.. ولكن ابن زياد يأبى ذلك..
فصاح "الحرّ" وهو يدفع جواده نحو صفوف الحسين (إذن،
فقاتلني معه)!!..

ونزل من فوق جواده، يعانق "الحسين" ودموعه تتفجّر من مآقيه،
ويقول له: -

"قد كان مني بالأمس ما كان. وقد استبان لي حقك، فجئتك
أفتديك بنفسى.

أفترى في ذلك توبةً لي مما صنعت"؟
وأجابه البطل، وهو يضمّه إلى صدره النبيل:
"إنها خير توبة، فأبشّر.. فأنت الحرّ في الدنيا.. وأنت الحرّ في
الآخرة إن شاء الله"!!..

وكما صنع "الحرّ بن يزيد" صنع بطل آخر، هو "يزيد الكندي".
لقد غادر مكانه في جيش ابن زياد، وبصق عليه، ثم انطلق يعدو بجواده
إلى جبهة "الحسين" العظيم!!..

* * *

والآن ..

أتبصرون ذلك السهم الذى انطلق يُمزّق الهواء فى اتجاه
"الحسين" وأصحابه؟؟

إنه السهم الذى قذفه - عمر بن سعد - قائد جيش ابن زياد معلناً
بدء القتال..

وتلاه على الأثر، بروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة.
ومن صفوف الأبطال خرج إليهم أكفأهم الأشداء..
هذا "عبد الله بن عمر الكلبي" .. مؤمن من الكوفة لم يكذب يعلم
باحتمال "الحسين" عند كربلاء، حتى اصطحب زوجته معه وشهد إليه
الرحال.

ها هو ذا يوفى لله بيعه ..

وها هو ذا، يخرج إلى مبارزته، فيصرعه من فوره .
وكان استهلاً باهرًا، أطار صواب الآخرين، فهجم عليه الشياطين
المرقة حيث ضربه أحدهم بسيفه فطارت كفه في الهواء. لكنه انثنى على
ضاربه فصرعه في لحظة ..

وتكالب عليه آخرون، تنگروا حتى لشرف المبارزة وقوا عدها،
لا سيما حين رأوا أن جميع مبارزيهم صرعوا بأيدي الذين خرجوا
إليهم من أنصار "الحسين" ..

ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقًا من أصحابه يقتربون
منهم بسيوفهم المشرعة.. عندئذ ولوا عنه، وهو مشخن بجراحه.
واشرأبت زوجته من بعيد، فبصرت به، وانطلقت تُهرول إليه حامله
يُمناها حربة طويلة. حتى إذا بلغت راحته تحتضنه بين ذراعيها لينهض
قائمًا وهي تقول له:

"فذاك أبى وأمى ..

قاتلٌ دون الطيبين من ذرية محمد ﷺ !!

لكنه يصيح بها، ويصرع إليها كي تعود إلى خبائها، فإذا هي تلعلع
بصوتها الواثق:

"لا، لن أعود.. ولن أدعك تذهب إلى الفردوس وحدك"!!
ولكنه يزحف بجسده المُشخَّن، ويدفعها أمامه نحو الخيام
فتستعصى عليه، وتستमित دون الرجوع.
ويلمح "الحسين" المشهد من بعيد فيناديها:
"جُزَيْتُمْ عَنْ أَهْلِ بَيْتِي خَيْرًا"
ارجعى يرحمك الله، فليس عليكُ قتال.

وآنئذ لا غير، تمتثل وتطيع، فإنها لا تستطيع لأمر ابن الرسول
عصياناً!!

ويستأنف "عبد الله بن عمر الكلبي" زحفه فوق أرض جاشت
بالصراع، ضارباً بسيفه ذات اليمين وذات اليسار، حتى غاصت حياته
تحت وطأة الهول الذي كان جسده قد تلقاه..!!
ومرة أخرى، تندفع إلى أرض القتال زوجته التي صممت على ألا
يذهب قبلها، وألا يذهب داونها إلى الجنة. وراحت تبحث بين جثث
الشهداء حتى وجدته، فجلست بجواره تُسجّيه بحنانها، وتضمُّه
بكيسانها، وتقبل الجراح التي رصّعت جسده وهي تصيح: "هنيئاً
لك الجنة"!!

ثم رِيضت إلى جواره، ويدها على مقبض سيفه، لتحرس جثمانه
من الوحوش الذين كانوا يعودون إلى الشهداء، ليجتزوا رءوسهم!!
لكن الشقى الزنيم - شمر بن ذى الجوْن - أبصرها، فأمر واحداً من
شياطينه، غافلها من الخلف وهشم رأسها، وهكذا لم تحرم من صحبة
زوجها إلى الفردوس الأعلى!!

التحمت الجبهتان التحاماً رهيباً.. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة، فجُنَّ جنونهم، وهجمُ فرسانهم في ضراوة..

وبرز لهم فرسان "الحسين" الذين لم يكونوا أكثر من اثنين وثلاثين فارساً، قدمروا هجومهم تدميراً، وجاوزوا الدفاع إلى الهجوم في سرعة ماحقة، وأحاطوا بفرسان ابن زياد، ثم مرقوا داخل صفوفهم يطوِّحون برءوسهم كالذباب!!

وسقط في يد قائدهم "عروة بن قيس" فنادى "عمر بن سعد" من فوق صهوة جواده، كي يُدركه بالرماة!! وأمر "ابن سعد" جيشه فتقدم بأجمعه، يتقدمه خمسمائة من الرماة..

وكبَّر "الحسين" تكبيرة هزت الأرض ونادت زلزالها. وانقذف يضرب بسيفه، فكانه قدر، لا رادٌ لأمره.. ولا مهرب من حكمه!!

كان يشد كالليث على غريم فيصرعه.. ثم يبصر آخر في طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أصحابه؛ فيئنسني إليه كالصقر ويرديه!!

وحلَّ روحه الغلاب في أفئدة أصحابه، فاشتعل حماسهم، واتقدَّ مضائهم وامتلات أفئدتهم المؤمنة عزماً وشوقاً، وراحوا يضربون ويقاتلون، في استبسال عظيم.

كانوا كلما قلَّ عددهم بوقوع الشهداء منهم، ازدادوا إقداماً وقوة.. لكانما كانت أرواح شهدائهم تستأنف بعد انطلاقها من أجسادها، نضالها وقتالها..!!

لم يكن أصحاب "الحسين" يتعجلون النصر؛ فما أبعد النصر عن قوم يقاتلون في مثل ظروفهم وبمثل عددهم.

إنما كانوا يتعجلون الجنة؛ إذ لم يكن لديهم ريب في أنها
الْمُنْتَهَى والمصير..!!

وركز رُماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التي يمتطيها فرسان
"الحسين" فعقروها جميعاً..

وهبط الفرسان إلى الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم.
كان كل بطل من أصحاب "الحسين" يتكاثرُ عليه عشرات من جيش
ابن زياد.

وهذه وحدها، تُرينا كيف كانت ضراوة القتال وعظمة الاستشهاد!!
ورغم ما كان لجيش الباطل من تفوق، فقد كان الفرع من نصيبه
وحده.

وليس هناك ما يصور هذه الحقيقة مثل إقدامهم على حرق
المضارب والخيام التي كانت لأهل الحسين وأنصاره.
لقد أحرقوها؛ ليشغلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك القلّة الصامدة
لقتالهم والمطوّحة برءوسهم..!!

واشتعلت الحرائق عالية، فنادى "الحسين" في ثبات عجيب:
"لا بأس.. اجعلوا الحريق وراء ظهوركم؛ فلا يستطيعوا اجتياز
النار إليكم"!!

ونجا فُسطاط "الحسين" من الحريق..

وفي خضمّ هذا الهول الذي شكله القتال الضارى الوييل، وقف
"البطل" يُقلّب وجهه في السماء!!

لقد كان ينتظر مَقْدَم عزيز لم يُخلف قط مواعده معه - ذلكم هو

الصلاة..!!

أجل.. لقد انتصف النهار، وجاء ميقات الظهر، وموعد صلاته.
وللصلاة في ميدان القتال طريقة خاصة.. وهكذا نادى "الحسين"
لصلاة الظهر- صلاة حرب وقتال!

هل رأى الناس شيئاً كهذا، فى جلاله، وجماله، وعظمته..؟
حتى الموت ينوشه وينوش أصحابه من كل جانب، لا يغفل عن
واجب ربه، ولا عن فرائض دينه!!
ويفرغون من صلاتهم ليواصلوا جهادهم، وقد بدأ النصف الثانى
من النهار..

أى إعجاز كان هذا الذى حدث..؟؟
وكيف صمد اثنان وسبعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس،
وراح.. وكيف ستظل بقيتهم صامدة حتى آخر النهار..؟؟
أوكل هذا الثبات، يهبه الحق أتباعه وأشياعه..؟!
أجل، وأكثر من هذا يمنح الحق ويعطى..

* * *

لقد أحاط الباقون من أصحاب "الحسين" به يقاتلون من حوله
ويذودون عنه.. وكل أمانيهم أن تواتيهم منايهم وهم بين يديه، أو عند
قدميه..!!

فهذا "حنظلة بن سعد الشامي" ينادى أعداء الحق:
"إنى أخاف عليكم يوم التناد.. فإياكم وقتل "الحسين" فقد خاب
من افترى.."

ثم يثبت بين يديه كأنه جبل، لا تزحزحه عن مكانه عشرات السيوف
والرماح التى اتخذته هدفاً.. ويظل يقاتل حتى يقع شهيداً..!!

وهذا "سيف الله بن الحارس وأخوه مالك" يقتربان من البطل،
ويعانقانه، ثم يقولان له:
"موعدنا الجنة"

ويقاتلان معه ومن حوله حتى تدركهما الشهادة!!
وهذا "عبد الله بن عروة وأخوة عبد الرحمن" يخوضان في صفوف
الأعداء ويصليانهم سعيراً..

ويثقل جسدهما بالطعن وبالضرب والجراح، فيقعان على الأرض
خائرة قواهما.. ثم لا تكاد أعينهم تقع على البطل يقاتل وحده عشرات
من الأعداء القساة حتى تنتفض فيهما من جديد عافية الأسود،
ويتضرع بأسهما.. وينهضان من بين يديه في قتال مرير حتى يقع أجرهما
على الله شهيدين عظيمين!!

وهذا "شاذب" و"عباس بن أبي شبيب" و"نافع بن هلال البجلي" و
"سويد بن أبي المطاع" وعشرات من إخوانهم المباركين را حوا
يقاتلون في جسارة وغبطة.. كلما سقط أحدهم جريحاً نهض فوق
جراحه، وسبح فوق دمائه حتى يعود فيقاتل.. ويقاتل في عزم شامخ
وثبات مكين؛ حتى لحقوا جميعاً بإخوانهم الذين سبقوهم أول النهار -
"زهير بن القين" و"عبد الله بن عمر الكلبى" و"الحرب بن يزيد" و
"يزيد الكندى" .. أولئك الأبطال الذين قاتل الواحد منهم
وكأنه جيش وحده.. والذين أبلكوا في المعركة بلاءً يتعاضم كل
وصف وكل إطرأء..!!

وتقدم آل بيت الحسين..

تقدم أبناء الرسول ﷺ نحو مصايرهم العظيمة..

لم يعد الذى يُضنيهم الظمأ إلى الماء الذى حرمهم منه
المجرمون.

بل الظمأ إلى الشهادة.. والشوق إلى الجنة!! لقد كانوا فى
لحظاتهم المجيدة تلك، يَشْمُون عبير جدِّهم الرسول ﷺ .. وجدتهم
خديجة.. وعبير حمزة.. وجعفر.. وعلى.. وفاطمة.. فيدركون أنهم
صاروا فى الجنة على قُرب ذراع، فينطلقون نحوها فى هيام..!!
وكان أولهم انطلاقاً "على بن الحسين" ..

فتىً لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره!!

انظروا!!

ها هو ذا - فى نضرة شبابه.. ورِيَّان إهابه.. فى روعة بأسه وشرفِ
نفسه.. يتوسَّط حراب الأعداء وسيوفهم، وهو ينشد:

أنا على بن الحسين بن على

نحن ورب البيت، أولى بالنبي

تالله، لا يحكم فينا ابن الدُّعَى

تماماً، كما كان يصنع من قبل جدّه "الإمام على" حين كان يقتحم

المعارك فى عُنفوانه اللّجب، وهو يزأر:

"أنا الذى سمّنى أمى حيدرَه

كلّيت غابات، كربه المنظرَه

أوفيهموا بالصّاع كيل السّندرة"

ها هو ذا، ابن التاسعة عشرة، يعيد إلى الحياة مرة أخرى بطولات

جده العظيم.

ذرية بعضها من بعض!!

ويمضى، يضرب ويضرب.. حتى تصيبه طعنة رمح؛ فيقع على الأرض، وقبل أن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشرات السيوف الباغية قد مزقت جسده الغض الشريف!!

ويراه الحسين.. مجّد الله الحسين - فيُسرع نحوه.. ويسرع معه شباب بنى هاشم!!

وفى رباطة جأش تُذهل كل حيّ، حمل البطل ابنه الحبيب، ثم سجّاه على ذراعى واحد من بنى عمومته، وأمره أن يذهب به إلى فسطاطه.

ولا تكاد الطاهرة البتول "زينب بنت على" رضى الله عنها وأرضاها.. لا تكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلو زفرات أساها..
أهذا الذى كان من دقائق معدودة، يملأ الأعين، شبابه، وبهاؤه،
وسناؤه..؟؟

هنالك انكبّت على الأشلاء الطاهرة الناضرة، تُضمّخها بدموعها وشجنها..

وأثر فى البطل مشهد أخته، فسار إليها يسألها الصبر.. ويقودها فى رفق إلى خبائها.

وعاد هو إلى ساحة القتال..

لم يكد هناك على أرض المعركة سوى أهل بيته..

أما أصحابه وأنصاره، فقد رحلوا جميعاً شهداء ممجدين..
ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم "على بن الحسين" ..

ومن بعده تقدموا جميعاً كالصقور الكواسر..
ها هم أولاء إخوته لأبيه:

عبيد الله بن علي بن أبي طالب.. وجعفر.. وعثمان.. ومحمد
الأصغر.. وأبو بكر.. والعباس.. يقذفون بأنفسهم وسط الهول، وأخوهم
العباس يهتف فيهم قائلاً:

"تقدموا؛ حتى أراكم قد نصحتُم لله ولرسوله".

فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية، ورماحه
الباغية.

وكلما لمحوا خطراً يقترب من أخيهم البطل "الحسين" تلقوه
بأجسادهم حتى سقطوا جميعاً صرعى.. بل قولوا صعدوا جميعاً
شهداء...!!

وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان "العباس
بن علي" الذي كان لبهاء طلعتة، وتألّق شخصيته، يُلقَّب بـ "قمر
قريش"!!

* * *

وتقدم أبناء "الحسين" وأبناء "الحسن":

أبو البكر بن الحسين.. وعبد الله بن الحسين.. والقاسم بن
الحسن..

كما تقدم أبناء جعفر بن علي بن أبي طالب: عون.. ومحمد..
وعبد الله.

وأبناء "عقيل بن أبي طالب":

عبد الله الأكبر.. وعبد الله الأصغر.. وجعفر..
وأبناء "مسلم بن عقيل" الذى قتله ابن زياد بالكوفة: محمد..
وعبد الله..

كما تقدم محمد بن أبى سعيد بن عقيل..
تقدموا جميعاً فى بطولة تتحدى نفسها!!
واندفع أصغرهم سنّاً - القاسم بن الحسن - يسهز سيفه فى الهواء
الساحن، ثم يهوى به فوق الأعناق الضالّة الظالمة، حتى نالت سيوفهم
فهوى كالنجم، ينادى: يا عمّاه..!!

ونسى "الحسين" ما حوله من هول، وانطلق كالصّقر صوب
قاتل ابن أخيه، حيث شدّ الليث وضربه بسيفه، فبتر يده الشقيّة
ثم طرحه أرضاً، حيث داسته خيل جيش ابن زياد، فهلك تحت
حوافرها..

وانثنى "البطل" نحو ابن أخيه يضمّه، ويشمّه، ويتملّى فى جسده
المُشخّن، روثق، الزهور..!!

ولأول مرة سالت عبرات الأسد، وقال يخاطب الجثمان المسجّى
بالمجد.

"عزيزُ والله على عمّك أن تدعوه فلا يُجيبك.. أو يُجيبك فلا ينفعك
فى يومٍ، كثرَ واترهُ.. وقلّ ناصِرُهُ..!!"

ثم حمله بين ذراعيه، إلى حيث أرقده بجوار ابنه على، ثم عاد
لهول المعركة من جديد..!!

لك الله، أبا عبد الله!!

وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذى يدغدغ الجبال، إلا وأنت له كُفءٌ وبه جدير؟؟

ألا صبراً آل محمد.. فهذا دوركم فى الحياة، وحظكم من الدنيا يا سادة الآخرة، ويا ملوك الجنة..!!

راح الأبرار يسقطون فى الحومة أبطالا.. و"الحسين" يصل هنا.. ويُقاتل هناك.. ودمه الزكى يتفجر من فمه الذى اخترمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء..!!

ووقف وحيداً أمام أعدائه..

وحيداً.. فقد رحل الأهل جميعاً، بعد رحيل الأصحاب..

كلهم عانقوا الشهادة فى سبيل الحق.

وأحاط به القتلة الذين سُمروا فى أماكنهم، زائغةً أبصارهم..

واجفةً قلوبهم.

لقد كانوا - على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفكوا من دم -

يهولهم دمُ "الحسين" فيتفادى كل منهم وزراً الإجهاز على حياته.

وهنا انبعث أشقاها "شمر بن ذى الجون" فصرخ فيهم؛ ليختطفوا

رأس البطل.. فاقربوا منه.. لكنه رغم جراحه ووحدته ينقض عليهم

بسيفه.. وبخرج من القسواط غلام صغير، هو "عبد الله بن الحسن".

فيلمح قاتلا يوجه سيفه نحو عمه، فيصيح فى براعة الأبطال "يا ابن

الخبثية أتقتل عمى".!

فيئاله، ابن الخبيثة بسيفه الجبان، فيسقط على الأرض دون أن

تصيب الضربة منه مقتلا، ويسارع إليه عمه فيحمله إلى مكانه مع عمته

السيدة زينب التى جلست تستقبل الضحايا، وتبصر المصاير، فى

تفويض لله، ورضاً بقضائه!!

يواجه البطل أعداءه في جولةٍ أخيرة، فتقع ضربة سيف على رأسه الشريف فتدميه.. فيشدّه بعصاة، ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه.

والمجرمون يضربون.. ويضربون.. بيد أنهم لا يزالون يرهبون دمه، ويتجنبون مقاتله!!

ومرة أخرى، تخرج "السيدة زينب" من خدرها. فتري أخاها وحيداً بين الوحوش، فتتقدم إلى حيث يسمعها "عمر بن سعد" قائد جيش ابن زياد، وتصبح به:
"يا عمر..

أُيَقْتَلْ أبو عبد الله وأنت تنظر؟؟!"

فيطرق "ابن سعد" خزيًا وندامة، ويصرف وجهه عنها وقد تفجّرت عيناه بالدموع.. لكنه لا يستطيع أن ينسلخ من الموقف الذميم الذي ورّطه فيه هواه..

ويضرع "البطل" إلى أخته كي تعود إلى مكانها، ثم يصيح في القتلة:

"أعلى قتلى تجتمعون؟.."

إنني لأرجو الله أن يكرمني بهوانكم، ثم ينتقم لي من حيث لا تشعرون."

ويطير صواب شمر بن ذى الجون، فينادى فرسانه من جديد ويأمرهم أن يقفوا من وراء مُشَاتِه ورُمَاتِه؛ ليمنعوا عن النكوص

إلى وراء.

ثم يصرخ فى الرماة، مُتوَعِّداً إياهم المصير، عندما يرجعون لابن زياد، ويحتاج كالمسعود طالباً رأس البطل..

ويتقدم من "الحسين" واحد فيضربه بسيفه الأثيم على معصم يُسراه فتطير كفه، ثم يتقدم ثان فيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه، فيقع على الأرض.. وبحسبون أنه انتهى، فينصرفون عنه، لكنهم يُفاجأون به ينهض من جديد متوكئاً على سيفه، فيسارع إليه آخرون موجهين إليه الضربة الأخيرة..!!

ويتقدم شمر بن ذى الجون، رجس البشرية كلها، فيجتز رأس البطل.. ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد، ويزيد..
تماماً، كما قُدم من قبل رأس "يحيى بن زكريا" عليه السلام، هدية لِبَغْيٍ من بغايا بنى إسرائيل..!!

* * *

كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه..
ومالت الشمس للغروب، مُخَلِّفة وراءها شَفَقاً عجيباً فى حمرة الزاهية، ووهجه المتألق..!!
ولقد امتد على طول الأفق، وكأنه بساط وُضِعَ ومُهْدٍ لِتُعْرَجَ عليه إلى جنان الله أرواح الشهداء..!!

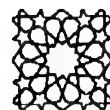
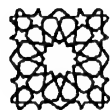
وعلى غير عادة الطقس والمناخ فى ذلك الحين وفى تلك الأرض، دَوَّتْ طلقات قوية صادعة كأصوات الرعود.

ولقد حسبها المجرمون نذيراً لهم.. ولكن لا، فهم أهون على الله من ذلك..

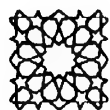
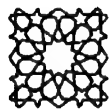
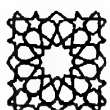
إنما هي السماء، كانت تطلق مدافعها تحية...!!
تحية إجلال، للمهمة التي أنجزها الشهداء...!!
وتحية استقبال للأرواح التي كانت قد بدأت رحلة خلودها.. حيث
تتلقى من يمين الرحمن ما أعدّه لها من مثوبة، ونعيم، وعطاء...!!



الفصل السابع



الحصــــاد والدرس



... وانتهى كل شيء، ليبدأ كل شيء!!

انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده.. ليبدأ من جديد بدروسه
وبحصاده!!

ولقد ألف المؤرخون والكتّاب أن يتمثلوا حصاد كربلاء، فيما
أصاب قتلة "الحسين" بعد حين، من قتل وتدمير.. ثم فيما شاده
المطالبون بثأره من إمبراطوريات ودول سادت الأرض وعمرتها قرونًا
طوالا..

أما نحن، فلنا وجهة نظر تختلف تمامًا..

فصحيح أن جميع الذين اشتركوا في قتله وقتاله، لقوا حتفهم على
أبشع الصُّور وأشدّها مذلةً وهوانًا.. كلهم، من ابن زياد، إلى شمر بن
ذى الجون، إلى آخر واحد من الذين تحمّسوا للباطل، ووقفوا من ابن
بنت الرسول ﷺ موقف التحدى والعدوان.

ومن عجب أن التاريخ تتبّع مصارعهم، فإذا هم جميعًا يُقتلون
فارّين هارين..!!

ليس فيهم من مات ميتة رجل..

وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة "الحسين" عليهم حين صاح

فيهم، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلاً :

"إني لأرجوا الله أن يُكرمني بهوانكم"!!

كلهم قتلوا وديست جيْفُهُم بالأقدام.. ما عدا يزيد.. فقد ضَنَّ عليه
القدر بأن يذهب قتيل ثورة أو مقاومة؛ إذ أن ذلك كان سيضعه إلى حدٍّ
ما، في الكفة المقابلة للحسين عليه السلام.

كان الناس سيتحدثون: أن داعية الحق قُتل استشهاداً..

وأن ملك بنى أمية قُتل عقوبةً، وقصاصاً.. وهذه مقابلة قد تجعل منه
على صورة ما، ندأ أو كُفُوا.. الأمر الذي صمَّم القدر على حرمانه منه،
فتركه يعيش أربع سنوات تعيشاً مُفزعاً.. ثم يموت في يأسٍ وهوان،
ونسيان..!!

* * *

نقول: صحيح أن قتلة "الحسين" لقوا جميعاً شرَّ مصرع وأسوأ
نهاية لكن ذلك لا يدخل في حسابنا بحال، ونحن نتتبع الحصاد العظيم
ليوم "كربلاء" ..

فليس لمقتل أولئك الأشقياء شأن يرتفع إلى مستوى ذلك
الحصاد.. ولا يُكْفَرُ عن دماء الرجال، بدماء الأندال!!

كذلك لا يدخل في حسابنا لحصاد كربلاء، تلك الدنيا الهائلة
الحافلة التي شادها المطالبون بشأر البطل من عباسيين، وفاطميين،
وعلويين.. فإن تلك الدنيا التي شادوها بكل إمبراطورياتها، ودُولها
وسُلطانها لا ترتفع إلى مُستوى الجوهر النضير لتضحية "الحسين"
وحياته، وثباته..

وبالتالي، لا نستطيع أن نعتبرها مَثوبةً لتلك التضحيات وذلك

الثَّبات.

إن حصاد تضحيته وتضحية رفاقه، ليجاوز ذلك كله إلى غايات أبعد، وأمجّد، وأسمى..

وإن الدرس الذى يليه يوم كربلاء بآلامه، وبطولاته.. بمأساته، وعظمته، ليتفوّق على نظرائه فى قوة النور الباهر الذى أضاء به ضمير الحياة..

والآن، فإن علينا أن نتبع مواطن العظمة والعبرة فى ذلك الحصاد.

* * *

وأول ما يلقانا فى هذا السبيل، هو أن جذوة الحق والصمود التى أضاءها الحسين وأصحابه بدمائهم، لم تنطفئ ولم يخبُ نورها باستشهادها بل ازدادت ألقًا واندلاعًا على نحو يبهر الأبواب..!!
وتمثّل، وأبهى ما تمثّل فى أخته العظيمة "زينب"، وفى ابنه "على" وهو غير "على" الأكبر الذى استشهد مع أبيه.

لقد توقعت الدنيا أن تحنى الكارثة جباه من بقى من آل بيت الحسين..

ولكن الطاهرة البتول "زينب بنت على" وحفيدة الرسول ﷺ، سرعان ما ردّت للدنيا صوابها، حين أرّتها من عظمة هذا البيت كل عجيب..

لقد أخذ - عمر بن سعد - قائد جيش ابن زياد.. أخذ معه إلى الكوفة أهل بيت البطل الشهيد من سيدات وأخوات، وأطفال..

وأراد أن تكون له فضيلة وسط يومه الكئيب المظلم فى كربلاء فحافظ على أهل بيت البطل، وأكرمهم، وصانهم من كل سوء.

وتوقع ابن زياد قبل أن يواجه آل بيت الحسين، أنه سيلقى انكساراً وضياءً يستدرّان عطف قلبه الجبان.

لكن "أخت الحسين"، البطلة.. أخت البطل.. وبنت البطل.. علّمته - إن كان لمثله أن يتعلّم - أنّ الهزيمة التي يتفجّع لها الناس ويستكينون، إنما هي هزيمة الروح وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة راياته أن تنهزم أرواحهم أبداً ولا أن تنحني جباههم أبداً!!.. ولقد لقنته هذا الدرس حين دخلت عليه ومعها أهل بيت أخيها الشهيد، فسأل: مَنْ هذه ..؟

فلم تُجبه.. ثم كرّر سؤاله مرتين وثلاثاً، وهي لا تجيبه، حتى أجابته إحدى خادما تها قائلة:

"هذه زينب، ابنة فاطمة، بنت رسول الله ﷺ" ..

فقال ابن زياد، مُدارياً خزيه الذي أنزله به احتقار "السيدة زينب" إياه..

قال البائس التعس: الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم.

وهنا مزّقت البتول صمّتها بزئيرها العالى:

".. بل الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه، وطهرنا من الرّجس تطهيراً..

وإنما يفضح الله الفاسق، ويكذّب الفاجر، وهو غيرنا، يا ابن زياد!!

واستمرّ ابن زياد فى مُداراة خزيه أمام الناس، فعاد يسأل البطلة:

كيف رأيت صنّع الله بأهل بيتك..؟؟

فأجابه فى عزّة إيمانها وثقاها:

"كُتبَ عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم.. وسيجمع الله بينهم ..

وبينك، فتختصمون عنده يوم القيامة"!!..

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبة المراس، فراح يُجيل بصره في بقية آل البيت حتى وقع على غلام مريض ظنّ ابن زياد أنه فرصة ليدير معه حديثه المتوقّع محاولاً إظهار صلفه وغروره.

كان هذا الغلام "علي بن الحسين الأصغر" الذي صار فيما بعد إماماً عظيماً عُرف باسم "علي زين العابدين".

سأله ابن زياد: مَنْ أنت..؟؟

فأجابه الشُّبل الكريم:

- عليّ بن الحسين..

قال ابن زياد: ألم يقتل الله عليّ بن الحسين؟؟

فأجابه في أناة:

- كان لي أخ أكبر مني يُسمّى "عليّاً" قتله رجالك..

قال ابن زياد في جهالة وقحّة: بل قتله الله..

فأجابه "عليّ":

"الله يتوقّى الأنفسَ حين موتها.. وما كان لِنفسي أن تموت إلا بإذن

الله"!!..

ودارت الأرض بابن زياد، بعد أن لفحّته إجابة الغلام الرجل..

فنادى أحد جلاّديه: خذ هذا الغلام واضرب عنقه.

وتقدم الجلاّد القاتل، فاعترضت السيدة العظيمة "زينب" طريقه،

وضمّت ابن أخيها بين ذراعيها وصاحت بابن زياد: "إذن فاقتلني معه.."

هناك انخزل الطاغية، ولم ينل الغلام بسوء.

ويمثل مجابتهها هذه لابن زياد، كانت مجابتهها ليزيد حين أخذ
الرَّكْبُ إليه بالشام، تسبقه رءوس الشهداء وفي مقدمتها رأس البطل
العظيم...!!

هناك وقفت تجاهه أمام الحشد الذي جمعه ليظهر أمامه جبروته
الكاذب وطغيانه الرخيص.

وقفت تقول له بملء فمها الصادق:

"إنك أمير مُسلط. تشتم ظالماً.. وتقهر بسلطانك.. أظننت يا يزيد
أن بنا هواناً على الله، وأن بك عليه كرامة، فشمت بأفك حين رأيت
الدنيا مستوثقة لك..؟

ألا إن الله إن أمهلك؛ فلأنه يقول:

﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم، إنما نملى
لهم ليزدادوا إثماً. ولهم عذاب مُهين..﴾

لتردَّن على الله غداً يا يزيد، وأنت تودّ لو كنت أبكم أعمى..
ولتجدننا عليك مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ
بابن مرجانة.. ويستصرخ بك!!

ولتعلمن يوم يحكم الله بيننا، أيُّنا شرّ مكاناً وأضعف جنداً"...!!
وكما صنع ابن زياد من قبل، صنع يزيد نفس الصنيع، فراح يلود
من قوارع "السيدة زينب" بتوجيه حديثه إلى الغلام المريض..
قال له: لقد قطع أبوك رَحِمِي، وجَهِل حَقِي، ونازعني سلطاني،
فصنع الله به ما رأيت.

فما زاد الغلام الرجل على أن تلا الآية الكريمة:

﴿ ما أصاب من مُصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير.. ﴾

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لا يحب كل مختال فخور...!! ﴾

راحت كلمات "زينب" الحارة وأنفاسها الساخنة، تهبُ جذوة أخيها الشهيد مزيداً من التوهج والألاء. فإذا الناس أفراداً وجماعات يرفعون جباههم جميعاً متحدّين ذلك النصر الرخيص الذي أحرزه يزيد وابن زياد..

فيقف الصحابي الجليل "يزيد بن أرقم" رغم كهولة سنّه ووهن جسمه، يصرخ في أهل الكوفة:

"يا معشر العرب الذين صرتم عبيداً.. أقتلون ابن فاطمة وتؤمّرون ابن مرجانة"؟؟!!

ويقف "عبد الله بن جنيّف الأزدي" لا يمنعه ذهاب بصره، وضعف شيخوخته، فيصيح بابن زياد أمام الملأ من الناس:

"يا ابن مرجانة.. أقتل أبناء النبيّن، ثم تقوم على المنبر مقام الصديقين..!!

ألا إن الكذاب، لهو أنت وأبوك.. والذي ولأك وأبوه"!!
وتنهض في الكوفة كتائب "التوّابين" مُقسّمة أن تهب حياتها لشارّ الحسين..

وتشتعل الثورة عارمة في مكة، وفي المدينة حيث يُجرّد لها - يزيد - من جنده وقواده من ينزلون بالحرميّن المقدسين من الدمار والقتل

والإفك ما يخجل الشيطان من اقترافه.

ولكن الجذوة المباركة لا تخبو، حتى يموت بحسرتة يزيد، ويخلفه ابنه "معاوية الثانى" .. وهنا يُوجَّه القدر الحكيم أذكى ضرباته، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الحسين، ويزيد الجذوة ضراماً، حين يجمع الناس ليوم مشهود، ثم يُعلن فيهم - كما أسلفنا من قبل - أن جدّه وأباه اغتصبا الحق من أهله، وأنه يبرأ إلى الله مما جنتُ أيديهما .. وأنه يربأ بنفسه وبتقواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة!!

ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه.. ويعتكف فى بيته حتى يأتية الموت فيلقى الله تقيّاً، نقيّاً، سعيداً!!

* * *

ويلقانا من حصاد كربلاء ودروسها العظيمة، جلال الإيمان وسلطان القاهر..

فالحسين رضى الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالبَ دنيا ولا جاه.. إنما كان مستجيباً لسلطان الإيمان الذى لا يُعصى ولا يُغلب. ولقد رأى الإسلام بكل قِيَمِهِ الغالية وأمجاده العالية. يتعرض لمحنة قاسية يفرضها عليه بيت أبى سفيان.

ورأى خطيئة الصَّمْتِ والسُّكُوت تجتاح الناس رغبةً أحياناً، ورهبةً أحياناً.. كانت بيعة يزيد دعماً لسلطان الجاهلية على حساب الدين.. ودعماً لسلطان القبيلة والأسرة على حساب الأمة..

وهكذا صارت مقاومتها دعماً لسلطان الدين والأمة معاً. ولئن فات "الحسين" دعم هذا السلطان فى النظام العام عن طريق

الخلافة، التي لم يكن له من أمرها شيء، فإنه لم يتخلَّ عن واجب دَعْمِهِ في الضمير، عن طريق التضحية والصمود والفداء.

وهكذا.. وفي سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحَّى البطل الشهيد براحتيه، ثم بحياته.. وضحى معه أهله الأقربون، وصحبه الأكرمون. ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون في عجلة، أن "الإمام الحسين" ومن قبله والده "الإمام علي" كانا بإيمانهما، وبما ينشدان للحياة وللحكم من ورع وتقوى يمثلان جُمُوداً لم تعد تطبيقه الحياة بعد التطور البعيد الذي حققه الإسلام وأنفعل به.

فالحق أنهما على العكس تماماً، كانا يُمثِّلان رُوحَ التقدُّم وضميره..

بينما كان الآخرون من بنى أمية يتحويلهم الدين إلى مزرعة أموية.. ويتحويلهم الخلافة إلى مُلكٍ يحتكرونه ويتوارثونه، ويتحويلهم السلطة إلى سوط.. وبإشاعتهم النزعة القبلية بعد أن أذابها الإسلام في وحدته الصُّلبة. كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المنتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها.

لقد كانت تُضَيء إيمان الحسين وتُسْتَجِيشه دوماً، تلك الكلمات الصادقة التي قالها جدُّه العظيم رسول الله ﷺ:

"هلاكُ أمتي على أيدي أَعْيَلِمَةٍ من قريش".

وها قد جاء زمان الأَغِيلِمَةِ مُمَثِّلاً ومُمَثِّلين في يزيد، وابن زياد، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء!!

وهناك حقيقة كان يدركها "الحسين" تماماً، ويدركها أبوه "الإمام" من قبله - هي أن بلاط معاوية وجيش الشام نفسه قد أفسحا

مكاناً رحباً وعريضاً لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإسلام ليندسوا بين صفوفه مخربين ومُدْمِرين.

فالإيمان الذى حمل "الحسين" لواءه، وذهب شهيداً كان لهذا كله، وبهذا كله، إيماناً مستنيراً وواعياً ورشيداً.

كذلك نواجه من حصاد كربلاء ودروسها، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية، وقداسة الحق.. فالقدر الحكيم، يرتفع بالتضحية فى "كربلاء" إلى أعلى مستوياتها المرموقة، ويجعل منها ومن الحق "قيمة مطلقة" تحقق ذاتها داخل ضميرها أولاً.. ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعد ذلك..

إنه يفصلها عن كل شئ عداهما، حتى عن النصر ذاته..

وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلاً يصمدون لأربعة آلاف فارس يوماً بأكمله ثم يستشهدون جميعاً بعد أن يُنزلوا بعدوهم خسائر فادحة تمثلت فى زيادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين.

كأنما أراد القدر أن يقول لنا: إن الدرس الذى أريد إلقاءه اليوم، ومن فوق منصة كربلاء الشاهقة، لا يتمثل فى قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة، فطالما أُلقيت دروساً من هذا الطراز.

إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق. درس اليوم فحواه أن التضحية قيمة بذاتها، وأن الحق قيمة بذاته..

وهما لا يستمدان جدارتهما ومكانتهما مما يُحرزان من نصر. أو يكتسبان من مَغْنَم وسلطة.

فالانتصارات والمغانم يظفر بها الباطل أحياناً، ويحققهما

الإذعان أحياناً.

وإذن فالصفة المميّزة للتضحية، أنها التضحية وحسب.. والصفة المميّزة للحق، أنه الحق وكفى..

والمثوبة العظمى التى ينفرد بها أبطال التضحية وأبناء الحق، هى انتماؤهم العظيم للتضحية وللحق..

أجل.. هذا هو الدرس الجليل الذى كان القدر يلقيه على الدنيا فى يوم كربلاء، متخذاً من حركة القتال وسير المعركة وسائل إيضاح..!!

فهو يدعُ الآلاف من فرسان ابن زياد يترنحون تحت ضربات "اثنين وسبعين" لا غير من أنصار "الحسين" وأبناء الحق؛ ليكشف - أعنى القدر - عن قدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد.. لكنه لا يريد؛ لأنه يُعدّ هذه المعركة وذلك القتال لمغزى آخر يؤكّد شرف التضحية وقداسة الحق مُستعليين بذاتهما عن كل شىء حتى عن النصر والنجاح!!

* * *

ولقد أبرزت بطولات كربلاء شرف التضحية على نحو باهر وجليل، حتى لنكاد نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلك اليوم بكل أهواله وتضحياته لتؤكد شرف التضحية فى وعى البشرية كلها، ولتضئ بمغزاه ضمير الحياة..

من أجل ذلك، اختارت لها فى يوم كربلاء، نماذج رفيعة، بالغة الرُفعة.. وقضية عادلة، بالغة العدالة.. ونضالاً باسلاً، بالغ البسالة..

إذن هى شرف الإنسان وشرف الحياة.

وما دامت التضحية شرفاً، فيجب أن يُصرف النظر عن الشكل الذي يفرضه عليها الاضطهاد والبغى. فالتضحية ليست حقلاً ساهراً.. وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم.. أو يقضى، وجسده ممزق.. أن يبقى رأسه مكانه من الجسد، أو يفصل الرأس ويُمثل بالجسد!! كل ذلك، وأكثر من ذلك يُغطيهِ شرف التضحية، ويُحوّل أساه إلى مجد.. وفواجعه إلى بطولات!!

ومن شاء فليُنظر، فهؤلاء نفرٌ من أكرم الخلق، وأتقى الناس، تُمزق أجسادهم بسيوف الباغين، ثم تجتزّ رءوسهم - اثنان وسبعون رأساً - وتغرس في أسنة الرماح..!!

فهل انتقص ذلك مثقال ذرة من شرف التضحية وعظمتها؟
أبداً.. بل زادها تألقاً وشرفاً..

إن الأجساد بمجرد إلقتها النفس الأخير يُزايِلها الإحساس بالألم.. ثم تنال الأرواح مكانها العالى عند الله بقدر بلائها وتضحياتها، كما تنال مكانها العالى فى ضمير التاريخ بقدر بذلها وعطائها.

ومن ثمّ فالناس يخطئون عندما يققون أمام شكل التضحية وما يصاحبها من ألم وفاجعة، ثم لا يجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية، حيث العظمة والجلال..!!

ولقد أدرك هذه الحقيقة، وعبر عنها فى أصالة عظيمة، بطل الإسلام "خالد بن الوليد" حين تمثّل مأساة حياته فى موته على فراشه، محروماً من شرف القتل على أرض المعارك والنضال. فقال قولته المأثورة:

"لقد شهدتُ كذا، وكذا زحفاً.. وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربةٌ سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم.. ثم هأنذا أموت على فراشى حَتَفَ أنفى، كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء"!!

* * *

وفى واقعة كربلاء هذه، يتألق ذلك المغزى تألق النهار. فإذا كانت فى شكلها الخارجى تبعث الأسى والحزن، فإنها فى جوهرها العظيم تستجيش كل ما فى النفس البشرية من إعجاب وإجلال.

إنها تبدو، وكأنها مهرجان للحق بالغ الروعة!!

وتبدو، وكأنها عيد للتضحية نادر المِثال!!

إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيد الأضحى، ويسمونه "العيد الأكبر".. فماذا كانت مناسبة هذا العيد فى التاريخ؟ كانت مناسبة التضحية.. ولا شىء سواها..

فخليل الرحمن "إبراهيم" أراد القدر أن يلقن البشرية عن طريقه درساً ليس كمثله درس فى تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأمره، فدعاه أن يذبح ولده فسارع من فوره وشحذ سكينه وتلّ ولده للجبين وفى اللحظة الباهرة ملأ الوحي روعه وفؤاده:

﴿يا إبراهيم، قد صدّقت الرؤيا.. إنا كذلك نجزي المحسنين﴾!!

فهل اتخذ الإسلام من تلك المناسبة عيداً، لأن الله افتدى "إسماعيل" بذبح عظيم..؟!

كلاً، فلقد كان سيحتفل بها أيضاً لو انتهى الأمر إلى أن يكون "إسماعيل" الذبيح والقربان..

ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون الموقف وجوهره - التضحية بأعز
 شىء.. وفى سبيل ربّ كل شىء، وإله كل شىء...!!
 ولقد وقف "الحسين" وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفاً استحق
 بطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيداً، أى عيد...!!
 لقد رفضوا الباطل، واختاروا الحق..
 ثم رفضوا الصُّمت، وآثروا المقاومة..
 ثم رفضوا المساومة، وصمدوا مع إيمانهم..
 ثم لما رأوا أنفسهم اثنين وسبعين، وسط أربعة آلاف فارس وراح،
 ولم يعد هناك أدنى ريب فى أن الموت هو الذى ينتظرهم، واقتحموا
 الهول فى مشهد مجيد، مُقرّرين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا
 أمتهم، بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة فى التضحية.. وهذا العيد
 الممجّد للفداء...!!

وفى جلال المُفتدين، وإخبات المتقين، راحوا يؤدون مهمتهم
 القاسية والعالية، حتى أنجزوها فى نجاح عظيم...!!!

* * *

وإنى لأكاد أرى المعركة أمامى..
 أرى وَقْع السيوف، وَقْذَف الحراب.. أرى قطع الرقاب، وتمزيق
 الأجساد.. أرى وحشية المجرمين، وصمود المتقين..
 أرى ذلك كله؛ فلا يخذعنى الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد..
 ولا تصرفنى مأساة الموت، عن عظمة الشهادة..
 ولا يشغلنى مأتم الأرض، عن انبهار السماء...!!
 أجل.. لكأنى أرى السماء يومها مُبتهية وهى ترى الحق يستعيد

قد استه في ذلك اليوم الرهيب، ويثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب!!

ثم، وهي ترى حكمة الله في اختياره تتجلى..
فقد يمًا، وعندما كان الرسول عليه السلام في بدء دعوته، قال كفار قريش: أولم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمي الفقير ليختار منه رسوله..؟؟

فأجابهم الوحي صاعدًا رافعًا:
﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.
أجل، الله أعلم..

وها هو ذا علمه يتألق للدنيا، ولا كمثلته تألق النهار..
فالرسول ﷺ لم يكن وحده بطل التضحيات، لأنه رسول.. بل ها هو عمه "حمزة" بطل الإسلام في "أحد" تمزقه السيوف والأحقاد، حتى تستقر كبده بين أنياب "هند" زوجة أبي سيفان..
وها هو ذا "جعفر" ابن عم الرسول ﷺ، بطل "مؤته" تحصد جسده سيوف الروم..

وها هو ذا "علي" ابن عم الرسول ﷺ.. بطل الإسلام في كل غزواته ومشاهده.. ويطله في وجه الوثنية الأموية التي أرادت أن تحوِّله إلى ملك عضوض - يمضى هو الآخر شهيد اغتيال أثيم..!!

وها هو ذا "الحسن" بطل السلام في الإسلام، تغتال عصابة الشيطان حياته بالسُّم، ويأخذ مكانه العالی بين الشهداء..!!
ثم ها هم أولاء، أبطال كرام من نفس البيت الممجد والعظيم،

يصارعون أربعة آلاف مدججين بالجريمة والسلاح.. وليس معهم فى ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصراً أو مقاتلاً.

ويتقدم الاثنان والعشرون إلى التضحية والموت فى استبسال مُعجز.. ويعانقون الشهادة جميعاً، لا يبقى منهم سوى فتى مريض..!!

أليس حقاً، أن الله أعلم حيث يجعل رسالته..؟؟

أليس حقاً ذلك يا رجال..؟!

فأى شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته؛ فنرى فيه وجه المأساة ولا نرى أمجاد البطولة..؟؟

ألأنهم قاتلوا ظمأ، وماتوا ظمأ، بينما أمواه الفرات تنفجر أمواجه على بُعد خطوات..؟؟

وأى بأس، وهم بعد ساعات معدودات سيكون لهم كوثر الرحمن كله.. يشربون منه غللاً بعد نهل..؟!

الآن نكاد نعرف.. فلكان هذا اليوم كان فى حساب الوحي يوم نزل على الرسول ﷺ من ستين عاماً مضت مُعزياً ومُبشراً وقائلاً:
﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾..!!

وأى شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته..؟؟ ألأنهم وحدهم فى تلك الفلاة يقاتلون، وهناك فى طول البلاد الإسلامية وعرضها ملايين البيوت أوى إليها أهلها، واستقروا آمنين تحت سقوفها..؟؟

وأى بأس؛ ما دام الله سبحانه قد ترك الملايين من تلك البيوت، ثم اختص هذا البيت وحده بأعظم ما فى الدنيا من مجد وشرف - شرف اصطفايهم لحمل رسالته، وإعلاء كلمته..!

وأى شىء فى يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته..؟؟ ألأن المعركة

سُتَخْلَفَ أجسادهم فوق أرضها صرعى بينما المجرمون يتلمظون بنصر
تعس رخيص..؟!

سلوا الله إذن عن حكمته في تلك الصفوف العارمة من القديسين
والأبرار الذين صرعهم الباطل عبر التاريخ من كل أمة، وعصر،
ودين..!!

أم لأنَّ رأس "الحسين" سيفصل عن جسده، ثم يحمل هدية لابن
زياد، ويزيد..؟

سلوا الله إذن عن حكمته في رأس "يحيى بن زكريا" نبيّه الكريم
والعظيم حين فصل عن جسده، وقُدِّمَ هدية لبغى من بغايا بنى
إسرائيل..!!

أم لأننا سنرى الفتى المريض المُجهد - "على بن الحسين" الذى
فقد فى المعركة أباه، وإخواته، وأعمامه يُقَيَّدُ بالأغلال ويُطَوَّفُ به فى
شوارع الكوفة التعيسة..؟؟

ألا فلنحطّم مقاييسنا الجاهلية الضريرة، إذا أردنا أن نبصر جوهر
الأشياء..

وإذا لم يكن بُدَّ لأقدامنا أن تبقى على الأرض، فلترتفع عنها
عقولنا ورؤانا، إذا أردنا أن نتعرف إلى حكمة السماء..!

وإذا كانت وحشية المجرمين سترينا فى كربلاء وجه الفاجعة التى
تُذيب الصخر، وتصهر الحديد.. فإن شرف التضحية وجلال الحق
سيرباننا فيها روعة المهرجان ومجد العيد..!!

* * *

ونختتم حصاد كربلاء ودروسها بمثوبة التضحية.. فتعلّمنا دروسها

العظيمة أن التضحية مَثْبُوتَةٌ نفسها، وإنما مادامت في سبيل الحق، فإن انتظار الأجر عليها جهل "بقيمتها" إلا أن يكون هذا الأجر رضا الله، ورضوانه، وجنانه..

وليس معنى كون التضحية مَثْبُوتَةً نفسها أنها تحرم أبطالها من مزاياها وعطاياها.. وإنما معناه أنها ترتفع بتلك المزايا والعطايا إلى مستوى من القداسة، والقدوة، والخلود، يُزرى بكل مغنم الدنيا العاجلة وأمجادها الزائلة!!

إن مظاهر الرقيّ البشريّ كثيرة، ولكن شرف الإنسان وجدارته بالحياة لا يزالان، وسيظلّان منوطيّين بقدرته على التضحية النبيلة والجليلة من أجل الحق.

واللوحة التي رسمتها تضحيات "الحسين" وأهله وصحبه بوأت هذا الشرف وتلك الجدارة أعلى المنازل والذرى..

إنهم لم يُقدموا على تضحية يرجى من ورائها النصر. بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها.. وهكذا جعلوها وسيلة وغاية..

كما أكدوا معنى أنها مَثْبُوتَةٌ نفسها، وأنها قيمة بذاتها!!

* * *

وبعد، فأكاد أسمعكم تقولون: إنك لم تحدثنا عن أجساد الشهداء الأبطال، أين استقرت،...؟ ولا عن رأس "الحسين العظيم" أيّان مصيره، ومُرساه...؟؟

أما أجسادهم الكريمة، فقد استقرت تحت الثرى الدامى لأرض كربلاء...!!!

فعلى أثر رحيل جيش ابن زياد خفَّ إلى مكان المعركة نفرٌ من بنى
أسد، كانوا ينزلون بالقرب منها، فدفنوا جثمان البطل العظيم.. وعند
قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب "على بن الحسين"، ومن حولهما دفنوا
أجساد بقية الشهداء الممجدين.. وحيث وقع "العباس بن على" أخو
"الإمام الحسين" شهيداً، دفنوا جثمانه الكريم.

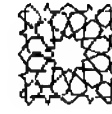
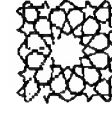
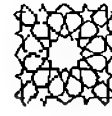
* * *

وأما رأس البطل، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادّعاء شرف
إيوائه، فيدّعى كل منها أن الرأس عندها يُعطر أرضها، ويبارك
حماها!!

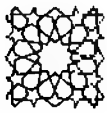
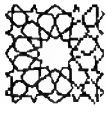
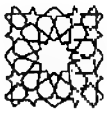
لكن لا يُعرف على وجه اليقين أين هو..
وذلك أمر يتسقى مع حياة البطل ومصيره!!
فرأس الحسين، بكل ما مثله من صمود وعظمة وتضحية لم يعد
ملكاً للحسين، ولا ملكاً لجسده..

لم يعد ملكاً لأرض.. بل ولا لدين دون دين..
لقد صار ملكاً للبشرية الراشدة في كل زمان ومكان.
صار ملكاً للحق، يرفعه في أوديته العامرة والثائرة لواءً وقدوة،
ويملأ بسناه إرادة الحياة عزماً، وضميرها نوراً.. وكذلك صارت رعوس
أهله وصحبه.. مشاعل فوق طريق الحق، والشرف، والإيمان!!



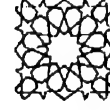
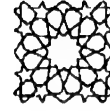


فهرس الكتاب

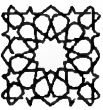
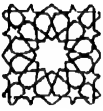
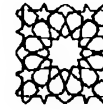
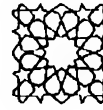
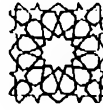
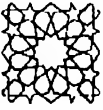


فـى هـذا الكـتاب

٧ مقدمة
١١ للتضحية خلقوا
٢٧ النبوة لا الملك
٤٩ السيد يفرض السلام
٦٩ العاصفة تزأر
٨٧ البطل يتقدم
١١٥ المأساة والعظمة
١٤٩ الحصاد والدرس



تعريف بالمؤلف



خالد محمد خالد
(المتوفى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)

كان مولده يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٣٩ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم الموافق ١٥ يونية سنة ١٩٢٠ ميلادية، فى "العدوة" إحدى قرى محافظة الشرقية بمصر، والتحق فى طفولته بكتاب القرية، فأمضى به بضع سنوات، حفظ فى أثنائها قدراً من القرآن، وتعلم القراءة والكتابة..

ولما عقد والده - الشيخ محمد خالد - عزمه على أن يلحقه بالأزهر الشريف، حمله إلى القاهرة، وعهد به إلى ابنه الأكبر "الشيخ حسين" ليتولى تحفيظه القرآن كاملاً، وكان ذلك هو شرط الالتحاق بالأزهر فى ذلك الوقت.

أتم حفظ القرآن كله فى وقت قياسى وهو خمسة أشهر كما بين ذلك مفصلاً فى مذكراته "قصتى مع الحياة" - ثم التحق بالأزهر فى سن مبكرة، وظل يدرس فيه على مشايخه الأعلام طيلة ستة عشر عاماً حتى تخرج فيه، ونال الشهادة العالية من كلية الشريعة سنة

١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م، وكان آنذاك زوجاً وأباً لاثنتين من أبنائه.
عمل بالتدريس بعد التخرج من الأزهر عدة سنوات حتى تركه
نهائياً سنة ١٩٥٤، حيث عين في وزارة الثقافة كمستشار للنشر، ثم
ترك الوظائف نهائياً بالخروج الاختياري على المعاش عام ١٩٧٦.
وبذلت له عروض مغرية كثيرة لئيل وظائف قيادية في الدولة،
سواء في رئاسة جمال عبد الناصر أو أنور السادات، فكان يعتذر
عنها، ورفض عروضاً أخرى كثيرة لأسفار يسيل لها اللعاب، وآثر أن
يبقى في حياته البسيطة المتواضعة التي يغلب عليها الزهد
والقنوع(*).

وقد تقلبت حياته في أطوار متعددة، من حفظ مبكر وسريع للقرآن
الكريم، إلى طالب نابه بالأزهر الشريف، إلى شاب متعطش للمعرفة،
تواق إلى أنواع الفنون والآداب والثقافات، إلى منغمس في السياسة
مشغول بها، إلى خطيب بارع تهز خطبه السياسية أعواد المنابر، ثم
إلى واعظ تغمر دروسه وخطبه القلوب بنشوة الإيمان، إلى عابد
مشغول بالآخرة، وصوفي مشغول بربه، وهكذا.. وقد شرح ذلك
بالتفصيل في مذكراته التي كتبها وجعل عنوانها "قصتي مع الحياة".
وفي سن مبكرة التقى بشيخه المربي الكامل الشيخ محمود
خطاب السبكي إمام أهل السنة ومجدد رواق الإسلام - كما وصفه
هو - وكان أعجوبة من أعاجيب الزمان، وشاهداً على ما يفيض الله
على أوليائه وأحبابه من واسع فضله وعطائه (**).

(*) انظر "قصتي مع التصوف" لخالد محمد خالد نشر دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة.

(**) انظر قصتي مع التصوف.

وصفه بقوله: "إن وصفه لمن الأمور الصعبة، والحديث عنه بقدر ما هو شهي وندي.. يوقع الكاتب في حيرة.. وهكذا يكون شأننا مع أنبياء الله والمرسلين.. ومع أوليائه المقربين.. فنحن نشق عبيرهم الذي يتضوع بهاء وعطراً.. ونتقلب في نعماء ما آتاهم الله من نور وهدى وحكمة.. بيد أن الاقتراب منهم يفرض علينا من التبعات مالا نطيق.. والحديث عنهم، وتفسير مواقفهم، أمر يعسر تناوله إلا على من يجعل الله عسره يسراً" (*).

وكما كانت حياته في بواكيرها كالنهر الذي تجيش مياهه بالفيضان، وتتقلب في تدفق وعنفوان، فإنه كلما اقترب من البحر هدأت أمواجه، واطمأنت مسيرته، حتى إذا امتزج بماء البحر صار له هدوؤه وشموله واتساعه..

وجاءت مؤلفاته الرائدة كذلك؛ بدأت ثائرة متدفقة.. وانتهت إلى الرسوخ واليقين.. وفي كلها كان مخلصاً، لا يبتغي بأى منها عرضاً من أعراض الدنيا. بل لقد جاءت الدنيا تعرض نفسها عليه من أوسع أبوابها، فأوحد دونها بابه...

ومثال على ذلك أن جمال عبد الناصر ورفاقه في مجلس قيادة الثورة كانوا قد قرأوا كتبه قبل الثورة، وتحمسوا لها لدرجة أن عبد الناصر كان يشتري منها - من جيبه الخاص - مئات النسخ ويوزعها على زملائه الضباط (**). ومع ذلك فإنه لما قامت الثورة لم يرد أن

(*) من مقدمة الكتاب "في صحبة الشيخ محمود خطاب إمام السنة وقطب الأقطاب" للأستاذ توفيق أحمد

حسن، دار المقطم بالقاهرة.

(**) انظر "قصتي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

يستفيد منها، وكانت فرصته في ذلك عظيمة، ولكنه بدلاً من ذلك وقف ناقدًا للثورة موجهًا لها، مطالبًا حكومتها بتطبيق الديمقراطية، فكان صدور كتابه "الديمقراطية أبداً" بعد ستة أشهر فقط من قيام الثورة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢.

وظلت هذه مواقفه من الثورة ورجالها حتى توجت بموقفه الفريد في "اللجنة التحضيرية" سنة ١٩٦١، وفيها انتقد مواقف الثورة من قضايا الحرية والديمقراطية، وعارض ما أراد عبد الناصر القيام به من إجراءات تعسفية ضد من أسموهم - حينئذ - ببقايا الإقطاع، وأعداء الشعب.. بعد أن نزعوا أموالهم غصبًا وظلمًا، ونكلوا بهم بغير جريرة ارتكبوها، فصاروا بعد عز في ذل، وبعد غنى في فاقة وعوز، وبعد أمن في خوف، ولا يجدون من يدافع عنهم، أو ينتصر لهم.. فكان هو الصوت الوحيد الذي ارتفع في وجه الصمت والخوف، مدافعًا عن الحق، طالبًا لهم - بدلاً من العزل السياسي - "العدل" السياسي، ولما أخذ التصويت في المجلس على من يعترض على إجراءات العزل السياسي، كانت يده هي الوحيدة التي ارتفعت في سماء القاعة التي ضمت - يومئذ - ثلاثمائة وستين عضواً (*).

منذ كتابه الأول "من هنا نبدأ" خرج خالد محمد خالد على الناس ككاتب فذ، وصاحب فكر، ومنسافح عن قضايا الأمة.. وبذا تحدد موقعه كمصلح اجتماعي وزعيم فكري تعلق به جماهير غفيرة من الناس، وأعجبت بكتبه وأفكاره، ليس في مصر وحدها، بل

(*) انظر "قصتي مع الحياة" فصل: حوار مع عبد الناصر.

وخارجها أيضا..

وطبع "من هنا نبدأ" ست طبعات فى سنتين اثنتين، وتُرجم فى نفس السنة التى صدر فيها إلى الإنجليزية فى أمريكا، وكتبت عنه عدة رسائل وأبحاث جامعية ومقالات فى أنحاء متفرقة من أوروبا وأمريكا..

ولكن فطرة المؤلف النقية، ونيتة الصادقة جعلاه - فيما بعد - يقول إنه عندما رأى حفاوة أعداء الإسلام بالكتاب أدرك أنه أخطأ فيه.

وهنا يتجلى واحد من مواقفه التى امتلأت بها حياته، إذ ظل يفكر فيما دعى إليه فيه من فصل الدين عن الدولة ويقلبه فى ذهنه حتى أعلن على الملأ رجوعه عن هذا رأى، فلم يخجل - وهو الكاتب الكبير - من أن يعلن أنه أخطأ.. وراح يصحح ذلك الخطأ بكل قوته.

فلم يترك وسيلة من وسائل إذاعة هذا التصحيح إلا أتاها من مقالات، أو تحقيقات صحفية أو إذاعية أو تلفزيونية.. ثم لم يكتف بهذا كله، فكتب كتاباً كاملاً أعلن فيه تصحيحه لرأيه الأول، وراح يدلل على أن الإسلام دين ودولة، بل إنه جعل شعار الكتاب هو: "الإسلام دين ودولة..

حق وقوة..

ثقافة وحضارة..

عبادة وسياسة.."

وقد خلف - رحمه الله - ثروة علمية كبيرة تربو على ثلاثين كتاباً، غير المقالات والأحاديث الكثيرة التي لم تجمع بعد.. وقد نفع الله بأعماله تلك نفعاً كبيراً، وتلقفها القراء في شوق، لأنها - ككل أعماله - اتسمت بالإخلاص، وتدفقت بالعاطفة الصادقة الجياشة..

وأشهر مؤلفاته، وأكثرها انتشاراً هي الإسلاميات التي جاءت فريدة في بابها من حيث الأسلوب، وطريقة التناول، وأشهرها على الإطلاق "رجال حول الرسول ﷺ" الذي تحدث فيه باقتدار عن سيرة ستين من أصحاب رسول الله ﷺ، و"خلفاء الرسول ﷺ" الذي ضم بين دفتيه خمسة كتب عن الخلفاء الراشدين:

١- "وجاء أبو بكر"

٢- "بين يدي عمر"

٣- "وداعاً عثمان"

٤- "في رحاب علي"

٥- "معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز"

وقد ترجمت هذه الكتب إلى لغات كثيرة في أنحاء عديدة من

العالم..

ومن كتبه أيضاً: "أبناء الرسول في كربلاء" و"والموعود الله" و"لقاء مع الرسول ﷺ" و"كما تحدث الرسول ﷺ" و"كما تحدث القرآن" و"إنسانيات محمد ﷺ" و"عشرة أيام في حياة الرسول ﷺ" وغيرها..

أما كتبه السياسية والإنسانية والاجتماعية والفلسفية فهي عديدة

كتب منها ثلاثة كتب في موضوع الديمقراطية وحدها، وهي:

"الديمقراطية أبداً" و "دفاع عن الديمقراطية" و "لو شهدت حوارهم لقلت .. راجع قائمة المؤلفات في آخر الكتاب..
وكتب - أيضاً - مذكراته في كتاب "قصتي مع الحياة"، وقد نشرت لأول مرة في جريدة "المسلمون" السعودية و "المصور" المصرية في آن واحد، وبعد أن تمت طبعت في جزء واحد في مؤسسة أخبار اليوم، ثم طبعت طبعة جديدة بدار المقطم بالقاهرة.
وكان آخر كتبه "الإسلام ينادى البشر"، وقد أراد له أن يخرج في ثلاثة أجزاء:

الأول: إلى هذا الرسول ﷺ

الثاني: "إلى هذا الكتاب" (القرآن)

والثالث: "إلى هذا الدين"

ولكنه لم يتمكن إلا من كتابة الجزء الأول، ثم وافته المنية.

أما عن عاداته في الكتابة، فإنه لم يكن يجلس للكتابة - قط - إلا إذا استشعر الحاجة الملحة لذلك، وتكون الفكرة التي يريد الكتابة عنها قد نضجت، وطلبت الظهور، حينئذ يجلس في أى مكان، وفي أى ظروف ويبدأ في الكتابة دون أن يلتفت لما حوله أو ينشغل به.. وقد تمضى - أحيانا - من حياته سنوات دون أن يكتب فيها شيئاً لأنه لم يجد ما يهيج في نفسه الدافع للكتابة..

وقد اتسمت كتاباته بأسلوب رشيق بديع، وقدرة فائقة على التعبير والغوص إلى جوهر الأشياء، ووصفها ببسر وروعة، واقتدار. وكان كثيراً ما يُسأل عن السر في جمال أسلوبه فكان يقول:

"إن الأسلوب في الكتابة لا يصنعه شيء إلا رب العالمين"

وقد أورد الدكتور شاعر النابلسي في كتابه الذي كتبه عنه نموذجاً من كتابته، وجعله تحت عنوان "عزف لغوى" (*)، وهو العنوان الذي يصف رشاقة أسلوبه وجماله، ونفوذه إلى القلوب..

وكان - رحمه الله - طيب النفس، مستبشراً في عامة أوقاته، تغلب عليه السكينة والتأمل..

وكان غاية في الكرم، غاية في التواضع ونبل الأخلاق، باراً بوالديه وصولاً للأرحام مراعيًا لحقوق الزمالة والجيران، ساعياً - إلى آخر أيامه - في قضاء حوائج الناس، لا يمل من كثرة قاصديه، ولا يضجر من إلحاح بعضهم عليه حتى في أوقات مرضه، وكان يقول: "تلك زكاة الجاه".

واتسمت حياته كلها بالزهد في المال والمناصب ومظاهر الجاه، وقد استفاد في وصف ذلك من عرفوه وكتبوا عنه (**) ومن ذلك أيضاً مواقفه التي أظهرت ما كان عليه من شجاعة ومن مكارم الأخلاق منها موقفه من الإخوان المسلمين الذين كان قد عارضهم قبل الثورة، ولكنه بعدها، وبعد أن نكلت بهم ومزقتهم كل ممزق، طلب منه مهاجمتهم ونقدهم فأبى ولم يخضع لتهديد ولا وعيد قائلاً: "لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذبيهم!! ويوم كانوا من القوة بمكان.. أما اليوم

(*) ثورة التراث، دراسة في فكر خالد محمد خالد للدكتور شاعر النابلسي.

(**) راجع "قصتي مع التصوف" ص ٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد أوصانا سيدنا الرسول ﷺ ألا نجهز على جريح .

وقد نقل الشيخ يوسف القرضاوى تفاصيل هذا الموقف فى مذكراته التى نشرها فى جريدة "آفاق عربية" (العدد رقم ٥٧٣). (*)
كان - رحمه الله - محباً للخير، مسارعاً إليه، كأنه كان يصف
كوامن الخير فى نفسه عندما كتب هذه السطور من كتابه "لقاء مع
الرسول ﷺ" :

"فإذا سالتنى - أيها القارىء - ما الخير؟ أجيبك من فورى: إنه
الخير.. إنه ذلك الذى يجعل الإنسان إنساناً حى القلب، ريان
الضمير.. وذلك الذى يجعل منك ملاذاً للآخرين، يأوون إليك كما
يأوى المحرور إلى ظل شجرة، أو كما يأوى الظمآن إلى عين ثرة
تفيض بالماء البارد النмир.

هو انعكاس إنسانيتك على الآخرين، وإضفاء فضائل نفسك
البارة الكريمة على الحياة وعلى الأحياء.

وإن خير ما يصنعه المرء فى حياته هو أن تسع حياته الناس
رحمة وبراً، ومحبة ووداً.

فكان محباً للناس، لجميع الناس، مستأنساً بهم، متودداً إليهم،
متغافلاً عن أخطائهم متسامحاً مع من يسيئون إليه..

كان - باختصار - متخلقا بأخلاق الإسلام، وإن لم يحرص على
أن يكسو نفسه بمظهره.. بل كان له مظهر الرجل العادى - كسائر
الناس. أما سلوكه وأخلاقه فكانا يدلان على عمق إيمان ورسوخ

(*) راجع "قصى مع التصوف" ص ٤٤ وما بعدها . ط المقطم.

يقين..

وكان يغزو ذلك إلى التصوف فيقول في مذكراته:

"ومرة أخرى أنحنى إجلالا للتصوف، فهو الذي سكب في روحي كل ما روى ظمأها إلى الخير والسكينة والمرحمة والمعدلة، وكل ما بقى لي بعد مغادرتي إياه من قربات ومغانم ومناعم، ومن فضائل وقدرة وإصرار.. فإليه - أولا - يرجع الفضل بين كل الأسباب، وقبل كل الأسباب"

لقد كان - رحمه الله - ممن تشرب روح التصوف منذ يفاعته، ولم يكن تصوفه إلا في قلبه، فلم ينتسم إلى أي من طرقه، بل تلقاه مبكرا على يد شيخه السبكي رضى الله عنه (*)

وكان محبا لأهله أينما وجدوا مداوما على زيارة أضرحة أهل البيت، وأولياء الله الصالحين .

ومن أقواله المأثورة:

- "إنى لا أرفض إنسانا لأن فيه خطأ أو اثنين أو عشرة، وأرفض معه بقية فضائله، فقد توجد فيه فضيلة واحدة تزن صلاح مائة عابد."
- "إن الحب هو جوهر الحياة.. إن الحب يولد في النفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى في الكون ولا تقابلها"
- "الله سبحانه لا يعيق المهاجرين إليه، والمسافرين إلى رضوانه، بل يجعل لهم الأرض مهدا، والسماء سبلا."
- "على رأس فضائل الحياة وشعار الدين تقف فضيلة الحب"

(*) راجع قصتي مع التصوف.

- "لأبد للحب كى يصفو ويدوم أن يكون خالصا، صافيا، نقيا، وبكلمة واحدة: أن يكون لله رب العالمين".
- "كما ننام نموت.. وكما نستيقظ نبعث.. ومن كان فى شك من الموت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم وبلا استيقاظ".
- "علاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التى تفرضها والسلوك الذى نحمل به هذه التبعات".
- "إننا من طول ما ألفنا بعض الآيات القرآنية، وبعض الأحاديث النبوية، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسر الباهر الذى تحمله، والحكمة الثابتة التى تمنحها".
- "إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا ومالها من حظوظ الخير والفضيلة".
- "لا تجد مؤمنا إلا حيا، ولا منافقا إلا عديم الحياء".
- "الإسلام لم يأت ليعلمنا أخلاق الصوامع.. بل ليعلمنا أخلاق المدينة".
- "الكذب مفسدة مطلقة، لأنه سريع النمو، سريع الانتشار، وله ضراوة كضراوة الخمر أو أشد".
- "الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها ترابا فى تراب".
- "التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس".
- "الإيمان بالقدر لا يقول لك: نم وانتظر قدرك.. بل يقول: قم واكتشف قدرك".
- "وسئل عن القومية العربية فأجاب: إنى لا أعرف شيئا عن القومية العربية، ولكنى أعرف أشياء عن الوحدة الإسلامية".

• وقال شعرا في عيد مولد النبي ﷺ:

يا عيد مولده كم ذا تواتينا تشدو فتبهجنا، تشجو فتبكيانا
قل للرسول إذا ما جئت روضته أدرك شعوبك قد حار المداوونا

وفاته:

كان - رحمه الله - قد مرض مرضا طويلا، واشتد عليه في سنواته الأخيرة، ومع ذلك كان دائم القول: "لا راحة للمؤمن دون لقاء الله" ولم تكن فكرة الموت تزعجه، بل كان كالمنتظر له على شوق، وقد استعد له، وأوصى بما يريد..

وكان من وصيته أن يصلى عليه في الجامع الأزهر، مع هذه العلمى، ومرتع صباه وشبابه، وأن يدفن بقريته "العدوة" بجوار الآباء والأجداد والإخوان والأهل..

وجاءته الوفاة وهو في المستشفى يوم الخميس، ليلة الجمعة ٩ شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩٩٦م - عن عمر يناهز الستة والسبعين عاما.



اللهم إني قد قلت فيه مبلغ علمي..
ولا يخلو كلامي من أثر حب الولد لوالده..
اللهم لا تكله إلى عمله..
واشمه برحمتك يا بر يا رحيم..
وصل اللهم على الحبيب الشفيع..
سيدنا محمد..
وسلام على المرسلين..
والحمد لله رب العالمين..

محمد خالد ثابت



كتب المؤلف

- ١- من هنا نبدأ
- ٢- مواطنون .. لا رعايا
- ٣- الديمقراطية، أبدا
- ٤- الدين للشعب
- ٥- هذا .. أو الطوفان
- ٦- لكي لا تحرثوا فى البحر
- ٧- لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
- ٨- معا على الطريق محمد والمسيح
- ٩- إنه الإنسان
- ١٠- أفكار فى القمة
- ١١- نحن البشر
- ١٢- إنسانيات محمد
- ١٣- الوصايا العشر
- ١٤- بين يدي عمر
- ١٥- فى البدء كان الكلمة
- ١٦- كما تحدث القرآن
- ١٧- وجاء أبو بكر
- ١٨- مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
- ١٩- كما تحدث الرسول (مجلد)
- ٢٠- أزمة الحرية فى عالمنا
- ٢١- رجال حول الرسول (مجلد)
- ٢٢- فى رحاب على
- ٢٣- وداعا عثمان
- ٢٤- أبناء الرسول فى كربلاء
- ٢٥- معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
- ٢٦- عشرة أيام فى حياة الرسول
- ٢٧- .. والموعود الله
- ٢٨- خلفاء الرسول (مجلد)
- ٢٩- الدولة فى الإسلام
- ٣٠- دفاع عن الديمقراطية
- ٣١- قصتى مع الحياة
- ٣٢- لو شهدت حوارهم لقلت
- ٣٣- الإسلام ينادى البشر
- ٣٤- إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
- ٣٥- قصتى مع التصوف

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٦٦٩٨

I.S.B.N الترقيم الدولي

977-5732-20-4